الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة

فى العصور الوسطى

الأثيوبيون والأحباش ـ عناصر السكان ـ سيادة لغة الجعز ـ تكوين المملكة الحبشية ـ عناصر حضارتها : الأثر السامى العربى ـ الأثر اليهودى ـ أثر الحضارة المصرية ـ البطالمة والحضارة الأغريقية ـ توسع مملكة أكسوم ـ دخول المسيحية والنفوذ الروحى للكنيسة المصرية ـ وصول الرهبانية والديرية إلى الحبشة ـ أثر المسيحية فى تاريخها الدينى والسياسى ـ علاقات الحبشة بالعرب قبل الإسلام ـ الحبشة واليمن ـ أثر النزاع الفارسى البيزنطى فى العلاقة الحبشية العربية ـ أبرهة ـ ظهور الإسلام وهجرة المسلمين الأولين إلى الحبشة ـ محاولات قريش ـ ما ذكرته المراجع من إسلام النجاشى ـ انتشار الإسلام فى الحبشة ـ ثغر عدوليس ـ احتلال العرب لجزائر دهلك ـ المعادن والبجة وإسلامهم ـ بنو مخزوم ـ المراكز الإسلامية ـ التوسع الإسلامى روحياً وسياسياً ـ « الطراز الإسلامى » ـ الخصائص المميزة لممالك الطراز الإسلامى : الوضع السياسى لها ـ نظم الحكم فيها ومظاهره ـ أحوالها العامة ـ تاريخها السياسى : أوفات ـ بالى ـ هديه ـ داره ـ مشيخات الساحل ـ تطلع الممالك الإسلامية إلى مصر ـ سياسة ملوك الحبشة : يكونو أملاك وبيبرس ـ أوفات تتزعم حركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة ـ اضطراب مملكة الحبشة ـ عمداصيون والناصر محمد ـ سفارة الممالك الإسلامية برئاسة الزيلعى إلى الناصر محمد ـ اشتداد النزاع بين الممالك الإسلامية والحبشة ـ سيف أرعد والناصر حسن ـ نهاية سلطنة أوفات فى زيلع وظهورها باسم « بر سعد الدين » أو مملكة عدال ـ بين برقوق والنجاشى داود ـ زرء يعقوب والحلف المسيحى ضد الإسلام خلال حملات مصر على قبرص ـ محاولة ربط الكنيسة الحبشية بروما ـ كتاب زرء يعقوب إلى السلطان جقمق ـ رجحان كفة المسلمين والنجاشى لبان العذراء ـ حلول العثمانيين محل سلاطين مصر فى حماية مسلمى الحبشة .

تدل المعلومات التى أوردها الكتّاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (أثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا شرقاً، وهى المنطقة التى تسكنها العناصر من ذوى البشرة المحترقة

أو السوداء أو الزيتونية اللون ، وهــذا ما يعنيه اللفظ الأغريقي (Aethiops) ، ويتكوّن من مقطعين : (Aitheim) بمعنى محترق ، (ops) بمعنى وجه[1] .

ومن هؤلاء الـكتّاب هوميروس الشاعر وهيرودوت المؤرخ اليونانيان، وديودور وسترابو من مؤرخي الرومان أوائل ظهور المسيحية . قسم هؤلاء المؤرخون سكان تلك المنطقة تقسيما عرضيا إلى مجموعتين كبيرتين هما : الأثيوبيون الشرقيون ، وموطنهم بلاد العرب وسوريا ومابين النهرين ثم امتداد هذا الصقع شرقاً حتى الهند ، والأثيوبيون الغربيون ، ويقطنون البلاد الواقعة غربي البحر الأحمر وتضم مصر والسودان[2] .

على أن الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغــة اليونانية ، استعملوا كلمة (كوش) وأرادوا بها أثيوبيا ، أى أنهم حددوا أثيوبيا أو شطرها الغربي بالمنطقة المعروفة باسم كوش والممتدة جنوب مصر ، وهى التى اشتهرت بصلتها بمصر منذ أقدم العصور ، وجاء فى سفر التكوين أن كوش هو ابن حام بن نوح[3] ويقال إن لـكوش هذا ولداً يسمى إيتيوبس (Aethiopis) وهو الذى سميت البلاد باسمه[4] .

---

(١) القنائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان؛ الجاحظ : فخر السودان على البيضان ص ٨١ .
Coulbeau (J. B.) : Histoire Politique et Religieuese d'Abyssinie, T. I, p.79

(٢) لهذا التحديد الجغرافى صلة بأسطورة القديس يوحنا .
(انظر : عبــد المجيد عابدين : بين الحبشة والعــرب ص ١٦٧ ــ ١٦٩ ؛
Budge (sir E. A. W.) : A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia, Vol. I, pp. 120. Jone (A. H. M.) & Monroe (Eliz) : A History of Abyssinia, pp. 59-63,178,180) .

(٣) جاء فى سفر التكوين : « وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان ؛ وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا ؛ وبنو رعمة بشا ودوان ؛ وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض » (الإصحاح العاشر : آيات ٦ ، ٧ ، ٨) .

(٤) اليعقوبى : جـ ١ ص ١٥٥ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ١٨١ ؛
Alype (pierre) : L'Empire des Negus, p. 19; Budge, op . cit. pp. 142,190.

وهناك حديث ينسب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم مؤداه أن سام أبو العرب ويافث أبو الروم وحام أبو الحبش[٥] .

وحين أعيدت ترجمة الإنجيل من الأغريقية إلى اللغة الأثيوبية المعروفة باسم الجعز، أطلق المترجمون كلمة أثيوبيا وعنوا بها الحبشة ، وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذ، أى فى القرن الرابع الميلادى يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية .

والمعروف أن الأحباش الأكسومين يفضلون أن تدعى بلادهم أثيوبيا بدلاً من الحبشة ، وأن يدعوا هم أنفسهم بالأثيوبيين لا الحبشيين ، بل إنهم ليشعرون بالإهانة إذا ما نعتوا بالأحباش، ولعل ذلك يرجع إلى أن أثيوبيا تعنى الكوش، والكوشيون قد أضحوا سادة على أغلب بلاد شمال شرق أفريقية ، باستثناء مصر، وذلك بعد إخضاعهم للقبائل الزنجية ، وهذا مجد قديم . كما أن أثيوبيا وردت فى التوراة ، فالحرص على هذه التسمية فيه معنى التيمن ، أما الأحباش فتعنى الأخلاط ، فضلًا عن أن الأحباش عنصر أجنبى[٦] .

أما كلمة الحبشة ، ومنها الأحباش ، وهما اللفظان اللذان صارا فى اللغة الأجنبية (Abyssinia — Abyssinians) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هى «حبشت» السامية التى عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب واستقرت فى أفريقية[٧] ،

---

(٥) السيوطى: أزهار العروش فى أخبار الحبوش (مصور عن نسخة بالاسكوريال ـ ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) .

ابن الجوزى : تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش (مصور عن نسخة بالاسكوريال ـ ميكروفلم رقم ٢٩ تاريخ بدار الكتب) .

(٦) الجواهر الحسان ص ح ـ ٧ ؛ عابدين : ص ٧ ؛ Budge, op. cit. pp. 120,130; Coulbeaux, op. cit. pp. 81.
Jones and Monroe, op. cit. pp. 10-14.
الشاطر بوصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٦

(٧) ورد فى بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان بن حام ابن نوح (ابن عبد الباقى : الطراز المنقوش بمحاسن الحبوش (مخطوط) ورقة ٦ ؛ الحلبى : أعلام الطراز المنقوش (مخطوط) ورقة ٤ .

ويرجح أن ذلك تم فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد ، والغالب أن الموطن الأصلى لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن خلال تلك الفترة على درجة كبيرة من التقدم والعمران فى ظل ملوك سبأ ، فإن هـذه القبيلة لا شك كانت أرفع حضارة ومدنية من الوطنيين المقيمين فى أفريقية إبّانئذ ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت حتى سادت فى موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التى تميزت بها ، غير أن الوطنيين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا لسيادة هؤلاء الأجانب . ومع ذلك لم يكد القرن الرابع الميلادى يطلع حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التى استوطنتها ، بل وعلى الوطنيين أنفسهم ، فغدا الجميع أحباشا ، وأصبحت كلمة الحبشة ترادف أثيوبيا[٨] .

وهنا تحسن الإشارة إلى وجوب التفرقة بين ما نعرفه اليـوم بمدلول هذا اللفظ (الأحباش) ، وبين ما عرف قبيل الإسلام من « أحابيش قريش » فهؤلاء الأخيرون ليسوا أحباشا أو زنوجا ، وإنما هم حلف عربى قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامه[٩] .

ومن الآن فصاعدا، سنستعمل كلمة حبشة كرادف لأثيوبيا ، وحدود هذه المنطقة قديما، بين النيل غربا والبحر الأحمر شرقا، ومن النوبة شمالا إلى ماوراء خط الإستواء جنوبا ، بمعنى آخر أن الحبشة أو أثيوبيا فى فجر الفترة التى يعنينا الحديث عنها، تشمل ما هو معروف حاليا باسم السودان والحبشة وأرتريا والصومال ، وكانت حدودها دائمة

---

(٨) Kammerer (A.) : Essai sur l'Histoire Antique d'Abyssinie, pp. 25-82; Coulb. op. cit. pp. 77-78; Budge, op. cit. p, 122; Trimingham (J.S.) : Islam in Ethiopia, pp. 5,7,32; Pankhurst (S.): Ethiopia, ACultural History, p. 28; Encyc. of Islam, Art.«Abyssinia»; عابدين ص ١٢

(٩) انظر العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ــ العصر العربى ، وهو بحث ممتع عن أحابيش قريش للمحقق الثبت المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ص ١٣ـ٢١ .

التغير من ناحية الشمال والجنوب ، وحدث نزاع حول هذه الحدود فى العصور الوسطى(١٠).

أما العناصر المكونة للحبشة ، فالمعروف أن القبائل الكوشية الرعوية الحامية تكون العنصر الغالب فى شمالها ، وتنقسم هذه القبائل إلى عدة فروع منها : الأجاو والبجه والساهو والسيداما والجالا،وأبرز هذه العناصر عنصر الجالا (Galla)(١١) تعرض الكوشيون إلى تغير ثقافى عميق مبعثه هجرة القبائل السامية منذ القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا ، وأهم قبيلة سامية ذات الأثر البارز فى تاريخ الحبشة ، هى قبيلة حبشت التى سميت البلاد باسمها ، ثم قبيلة الجعز أو الأجاعز ، وهى التى سادت لغتها وغدت اللغة الأدبية للمسيحية فيما بعد ، وتعرف اللغة الأثيوبية باسم « لسان الجعز » وأقدم نص كتب بهذه اللغة فى الحبشة ، وجد على مسلة ترجع إلى القرن الثالث الميلادى(١٢). استقرالجعزيون فى مناطق : شميزانا وأجاما وأكيله وجوزى(١٣).

لذلك لم تكن هجرة الساميين لقبائل بدوية، وإنما لجماعات من الزراع المتحضرين الذين ألفوا الاستقرار ، ولهم نظمهم الاجتماعية وعناصر حضارتهم العريقة . أدخل هؤلاء الحضارة السبئية المعتمدة على الوسائل الصناعية كوسائل الرى المتقدمة فى عمل الخزانات والسدود وشق القنوات ، وزراعة سفوح الجبال، وأدخلوا كذلك استعمال

(١٠) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا عام ١٩٠٢ ، بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربى ، وحدودها الشمالية الشرقية أرتريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية ؛ Budge, op. cit. p. 122 Trimingham, op. cit. p. 1).

ابن حوقل : كتاب صورة الأرض (القسم الأول) ص ١٦

(١١) Budge, op. cit. pp. 129-31

(١٢) عايدين ص ١٣؛ Trimingham, op. cit. pp. cit. pp. 6-7,32

(١٣) Jones & Monroe, p. 34; Trimingham, p. 32; Coulbeaux, p. 91; Encycl. of Religion & Ethics, Art. Hamitss & East Africa; Pankhurst, pp. 28,111; Beckingham (C. F.) & Huntingford (C.W.B,), Trans. & Edit. : some records of Ethiopia, p. LXVIII.

المعادن ، وبعض النباتات الجديدة ، واستخدموا الأحجار فى البناء ، وهـــذا بجانب نوع من التنظيم الإدارى والإقليمى وفن الـكتابة ، ومن ثم أضحت المنـاطق التى استقروا فيها مراكز لنشر الحضارة . وقد عثر على أثر قديم لهذا العنصر السامى فى مدينة قديمة تسمت آفا (Ava) وتعرف الآن باسم « يحا » ؛ عثر فى هـــذه المدينة السامية على بعض أحجار لمعبد إله الشمس وعليها كتابات حميرية ترجع إلى القرنين السابع والخامس قبل الميلاد[١٤] .

وجد هؤلاء المستعمرون الجدد فى مهجرهم مناخا يشبه ذلك المناخ الذى فارقوه ، مما ساعدهم على مواصلة نشاطهم ، ورغم أن الـكثير منهم جاء ومعه نساؤه ؛ إلا أنهم لم يلبثوا أن اختلطوا بالقبائل الحامية وصاهروها ، وكان من نتيج هـذا الامتزاج مواطنو مملـكة أكسوم ، حيث برز بيت من البيوت الإقطاعية الوثنية ، تولى الزعامة وأسس هذه المملـكة التى يرجح أنها قامت فى القرن السابع قبل الميلاد ، ونمت نواة هذه المملـكة فى الجبال ثم امتد سلطانها إلى الوديان والمنـاطق الساحلية حتى ضمت أرتريا ، وعاصمتها «أكسوم[١٥] » ولم تزل أكسوم حتى الوقت الحاضر العاصمة الدينية لملوك الحبشة ، يتوجون فيها .

نشطت مملـكة اكسوم ، وهى المملـكة الحبشية الأولى ، واستطاعت أن تـكون حضارة وطنية متأثرة بالحضارة السامية ، وكذلك بالحضارات الأخرى فى شمالى شرق إفريقية وهذه الحضارات مشتقة بدورها من الحضارة المصرية القديمة ، ومن أمثال هـــذه الحضارات المشتقة من الحضارة المصرية مملـكة مروى (Meroë) فى وادى النيل[١٦] ، وكذلك حضارة البجة والشعوب النيلية مثل باريا . غير أن أبرز

---

(١٤) Alype, op. cit.pp. 23-24; Pankhurst, p. 48; Trimingham, pp. 33-43.

(١٥) تذكر بعض الروايات أن هـذه العاصمة أخذت اسم مؤسسها : أكسوماى ؛ Bupge, pp. 140,190-1- Coulb. p. 84.

(١٦) قامت هذه المملـكة فى مروى قرب نباتا عند الشلال الثانى ، وامتد سلطانها من =

عنصر فى حضارة أكسوم هو العنصر السبئى الذى اشتقت منه أصلا[١٧] .

ومن الحضارات التى أثرت فى حضارة أكسوم ، هناك الحضارة اليهودية ، التى تسربت إلى البلاد عن طريق اعتناق قبائل الأجاو (Agao) لهذه العقيدة . ويرجح أن اليهود وصلوا إلى الحبشة على أثر تفرقهم أواخر القرن السادس قبل الميلاد حين ضرب بختنصر البابلى (Nebuchadrezzar) بيت المقدس وشتت بنى إسرائيل . ويعرف اليهود فى الحبشة باسم قبائل الفلاشة[١٨] ؛ وقد كون هؤلاء مستعمرات تجارية فى الحبشة وغيرها ، وصارت هذه المستعمرات خلايا للدعاية اليهودية فضلا عن النشاط التجارى الذى أسهم فى تقدم اكسوم ، ورغم أن قبائل الأجاو قد اعتنقت اليهودية إلا أنها لم تثبت عليها ، فقد تحولت فيما بعد إلى المسيحية المينوفيزيتية ، ولا يخفى أثر اليهودية فى الأفكار السياسية والدينية لمملكة الحبشة ، منها أسطورة تسلسل ملوك الأحباش من سلالة سليمان الحكيم وزوجته ملكة سبأ التى يسميها الأحباش ماقده (Makeda)[١٩] ، أما أثر الإغريق والحضارة الهللينية ، فقد وصل عن طريق البطالمة فى مصر ، ولعبت الثغور التجارية التى أنشأوها على ساحل البحر الأحمر الغربى دورا هاما فى نقل الحضارة الهللينية إلى دولة أكسوم الناشئة ، ومن هذه الموانى البطلمية الإغريقية : ليوكوس ليمون وميوس هرموس ، وبدا مظهر الحضارة الهللينية فى التنظيم التجارى وإصلاح الموانى وصيانتها وتنظيم الجيوش ، ونظم التعليم والإدارة ،

= الشلال الأول إلى حدود الحبشة ، وتأثرت بالحضارة المصرية القديمة ، ومن مظاهر هذا التأثر أن ملوك مروى كانوا يدفنون موتاهم فى مقابر على شكل أهرامات ، وتكتب أسماؤهم فى خراطيش ، وذلك على النحو المعروف عند الفراعنة (Budge, pp.56-62 ؛ عبدالله حسين: تاريخ السودان ص ٥١ ــ ٥٢) .

(١٧) Trim., pp. 33,,35

(١٨) الجواهر الحسان ص و ، ٨ ؛ Hall (H.R.): The Ancient Hist. of the Near East, p. 246.

(١٩) عابدين ص ١٦ــ١٧ ؛ Trim., pp. 345; Budge, p. 194; Coulb.; pp. 95,,99.

والمعروف أن البطالمة استخدموا عددا من الأجناس الملونة فى الخدمة الحربية لحراسة موانى البحر الأحمر ، وكان هذا سبيلا لانخراط عدد من رعايا الدولة الأكسومية نفسها ضمن الفرق الحربية البطلمية . ويقال إن ميناء عدوليس (Adulis) قد أنشىء أو أعيد إنشاؤه وإصلاحه على عهد بطليموس الثالث الملقب بيورجتس الأول (Euregetes I) (٢٤٧ ـ ٢٤٢ق.م) ، ويقع على الخليج الذى كان يعرف باسمه ، ويعرف حاليا بخليج أنسلى (Annesley) ومكانها الحالى ثغر زولا (Zula)[٢٠] ظل هذا الثغر خاضعا للبطالمة ، وقد عثر التاجر الرحالة المصرى الإسكندرى كوزماس (Cosmas) على أثر فى هـــذا الثغر فى القرن السادس الميلادى ، يعرف هذا الأثر باسم أثر عدوليس (Monumentum Adulitanum) وهو عبارة عن كتابات باللغة الإغريقية سجلت زمن بطليموس الثالث وتذكر أن الفرق العدولية والأثيوبية التى رافقته فى حملته الآسيوية إنما جمعت وعبئت من المناطق المجاورة ، ولهذا الثغر أهميته الكبرى فى تصدير المنتجات الإفريقية ونقل الحضارة الإغريقية[٢١] .

أخذت دولة أكسوم تتسع على حساب جيرانها، وقد اعترف الرومان بها على أثر فتحهم لمصر عام ٣٠ق.م ، وأشار مؤرخو الرومان لهذه الدولة باسم (Axumitoe)[٢٢] وامتدت غربا إلى وادى النيل ووصلت فى توسعها شمالا إلى سواكن وهاجمت البجة والنوبة لتأمين حدودها ، وصارت ميناء عدوليس ميناءها الرئيسى، ويبعد عن العاصمة بنحو مسيرة ١٥ يوما .

تعددت مشروعاتها التوسعية، حتى بلغت ذروة المجد على عهد الملك عزانة(Ezana) الذى تولى العرش حوالى عام ٣٢٠ م ، فاتسعت حدودها ونشطت تجارتها وعم الرخاء رعاياها ، كما أضحت العاصمة أكسوم المركز الرئيسى للتجارة فى شمالى إفريقيـــة ،

---

(٢٠) Encycl. ,of Islam, Art. «Abyssinia»

(٢١) عابدين ص ١٨ـ١٩ ؛ Pankhurst, pp. 20-16 Coulb p. 99 Alype, p. 25; Trim. pp. 35-36

(٢٢) Coulb., p. 84

يقصدها التجار من مختلف الجنسيات ، حتى أشبهت على عهد عزانة ، الإسكندرية على عهد البطالمة . بل إن أى أثر أو نقش ذى أهمية فى تاريخ الحبشة ، إنما يرد إلى عهد هذا الملك، كتبت حولياته بالإغريقية وبالحبشية أو الحميرية، وربما قورن بدارا الأكبر الفارسى من حيث إن كلا الرجلين رغب فى أن يقرأ رجاله أعماله ويشهدوا مآثره ، كل بلغته الخاصة حين يزور العاصمة ، وقد طال عهده وازدهر . وبجانب كونه محاربا من الدرجة الأولى كان سياسياً من الطراز الأول ، وحسبنا دليلاً على سعة نفوذه أن السجلات التى دوّنت فى عهده كانت تستهل بعبارة « نحن عزانة ملك أكسوم وحمير وريدان (صفر باليمن) ـ وسبأ وسالحين (حصن مأرب) ـ وسيامو (القبائل الساكنة جنوب شرق أكسوم) ـ وبجة وكاسو (الكوش) ... »(٢٣) .

* * *

وعن اعتناق أكسوم للمسيحية ، يلاحظ أن هذه الدولة كانت تدين بالوثنية ، وعلى دين الصابئة الذى أتاها من اليمن . وأعظم آلهتها « عثتر » آلهة السماء ، ومدر (Meder) آلهة الأرض ومحرم (Mahràm) إله الحرب ، ويقابله الإله مارس (Mars) إله الحرب عند الرومان (ومارس هو كوكب المريخ) ويعتبر محرم إله الأسرة الحاكمة، التى تدعى أنها منحدرة عنه، فى سجلات الملك عزانة أن أباه الإلهى هو محرم . وأغلب رعايا الدولة الأكسومية على الوثنية، ولآلهتها عدد كبير من المعابد يتبعها طوائف من الكهان (٢٤).

وخلال القرون الأولى للمسيحية، نهضت طوائف المبشرين بعملها فى مصر وشمال شرق إفريقية ، وازداد عدد الداخلين فيها ، ولا سيما بعد مرسوم ميلانو عام ٣١٣م ،

---

(٢٣) Coulb., pp. 138-9; Pankhurst, p. 51; Budge, pp.242-3 Bury (J.B.): Hist. of the Later Roman Empire, Vol. II, p. 323; Kammerer, op. cit., pp. 58,87-88

(٢٤) Trim., p. 37; Kammerer, pp. 121-3, Budge, pp. 142, 243.

وهـو المرسوم الذى أصـدره الامبراطور قنسطنطين الأكبر معترفا بالمسيحية ضمن الديانات القائمة فى امبراطوريته[٢٥]. وتسربت المسيحية إلى الحبشة فى وقت مبكر عن طريق العلاقات التجارية مع بيزنطـة وولاياتها ؛ على أن تأسيس الـكنيسة الحبشية الأكسومية يرجع إلى أخوين صوريين هما: فرومنتيوس (Frumentius) وأيدسيوس (Aedesius) .

يذكر المؤرخ رفينوس المتوفى عام ٤١٠ م أن الفيلسوف أو التاجر الصورى (Meropius) ، أرسـل جماعـة للتبشير بالمسيحيـة بين الأحباش وكان الأخوان فرومنتيوس وأيدسيوس ضمن هذه البعثة ، فلما وصلت السفينة بهم إلى إحدى موانى البحر الأحمر المطلة على الحبشة ، خرج عليهم المواطنون وقتلوهم ولم ينج سوى هذين الأخوين اللذين أخذا كرقيق وبيعا إلى الملك فى أكسوم ، وفى البلاط الأكسومى عمل الأول رائدا للأمير الطفل ولى العهد ، واشتغل الثانى ساقيا للملك ، وعند ماتولى ولى العهد العرش ، وهو عزانة ، بقى الأخوان فى خدمته ، وبرز اسم فرومنتيوس بسبب نشاطه الدينى فى نصح المسيحيين من تجار الإغريق المقيمين فى أكسوم وأخذ يحثهم على بناء الـكنائس ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا . وبعـد فترة غادر الأخوان أكسوم ، وصار أيدسيوس أسقفا لمدينة صور حيث التقى بالمؤرخ رفينوس وقص عليه قصته ، وتوجه فرومنتيوس إلى الإسكندرية حيث تقابل مع البطريق أثناسيوس ، الذى كان قد تولى البطريكية منذ عام ٣٢٨ م ، وتناقش معه فى وجوب إرسال أسقف ليشرف على المسيحيين الذين كثر عددهم فى أكسوم وليس لهم راع أو رئيس يرشدهم . أجاب أثناسيوس بعقد مجلس من الأساقفة بالإسكندرية واستقر الرأى على إرسال فرومنتيوس نفسه ، إذ بدأ فى نظر المجلس أنسب رجل لهذه المهمة التى خبرها من قبل ، وصدر قرار تعيينه أسقفا للحبشة عام ٣٤١ م أو ٣٤٦ م . سافر الأسقف إلى أكسوم

---

(٢٥) انظر المرسوم فى : Barker, (E.) from Alexander to Constantine. «Passages & Documents Illustrating the Hist. of social & Political Ideas». pp. 468-471.

وقام بمهمته خير قيام ، ويعتبر مؤسس الكنيسة الحبشية وأول أسقف لها . وخلال إقامته اعتنق الملك عزانة المسيحية بعد أن كان وثنيا وجعلها الدين الرسمى للدولة حوالى عام ٣٥٠م ، وربما أشبه عزانة الإمبراطور قنسطنطين الأول فى اعترافه بالمسيحية واعتناقه لها ، حتى ليعد فى نظر بعض المؤرخين أنه قنسطنطين الحبشة[٢٦] كما أنه يشبه من جانب آخر الامبراطور تيود سيوس الأول الذى جعل المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية البيزنطية .

ومنذ ذلك الوقت أضحت الشارة التى تزين عملة عزانة هى شارة الصليب الإغريقى وحلت هذه الشارة محل رمز الشمس والقمر الذى كان يطبع على عملته حين كان على الوثنية . احتفى عزانة ومن تبعه من المسيحيين ، بالقديس فرومنتيوس ولقبوه الأب سلامة (Abba Salama) ويقال إن الأب سلامة هو الذى ترجم الإنجيل إلى لغة الجعز أو على الأقل بدأ هذه الترجمة ، وخلفه فى منصب الأسقفية بالحبشة القديس مينا أوالأب ميناس (Abba Minas) الذى عين بقرارمن البطريق اثناسيوس عام ٣٦٢م[٢٧] . وحدث خلال تلك الفترة أن أرسل الامبراطور البيزنطى قنسطنطيوس الثانى (٣٣٩ـ٣٦١م) أسقفا معينا من قبله وهو الأسقف ثيوفلس الأريوسى، عينه الامبراطور على كنائس الحبشة واليمن وجزيرة سوقطرة[٢٨] وبعث إلى عزانة وأخيه شيزانا (Shaiazana) خطابا عام ٣٥٦ ، يطلب إليهما فيه

---

(٢٦) Pankhurst, pp. 120-5;Kammerer, p. 85 Jones & Monroe, pp. 26-27.

(٢٧) الجواهر الحسان ص٩ ؛ Bury, II' p. 322, Trim. ,pp. 38-40. Budge pp. 147-8, Coulb., pp. 159-161.

(٢٨) اختلفت الآراء فى مهمة الأسقف الأريوسى ثيوفلس ، فنسب إلى هذا الأسقف نشر المسيحية فى جنوب بلاد العرب وإنشاء ثلاث كنائس فى ظفار وعدن وهرمز ، وهذه الأخيرة مع الخليج العربى ؛ ونسب إليه كذلك عقد معاهدات تجارية لصالح الامبراطورية البيزنطية ؛ وهناك من يقول أن مهمته قد اقتصرت على تحويل المسيحيين الموجودين فى تلك البقاع ، إلى المذهب الأريوسى . (Trim, p. 40 , Bury, II p. 322)

طرد القديس فرومنتيوس لأنه مهرطق(٢٩) ، غير أن الملك لم يستمع إلى هذا الطلب ، وظلت الكنيسة الحبشية منذ ذلك العهد مرتبطة بكنيسة مصر حيث يقوم البطريق القبطى بتعيين أسقف (مطران) للحبشة(٣٠) ، ويقال إن أحد المجامع الدينية التى عقدت فى نيقيا خلال القرن الرابع الميلادى ، قد أقر خضوع كنيسة الحبشة لمصر ومضمون القرار — : « أن مسيحي الحبشة لا يجوز لهم الاستقلال بأمورهم الدينية ، وإنما هم تابعون للكرسى الإسكندرى(٣١) ». وفى هذا المعنى يقول القريزى : » ولابد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقية بمصر ، بعد سؤال الحطى — لقب ملك الحبشة (Hade) — لسلطان مصر فى ذلك بكتاب يبعثه مع مرسله صحبة هدية ، فيتقدم البطريق بتعيين مطران(٣٢) ». وفى كتاب القوانين : « والحبش فلا يبطرك عليهم بطرك من علمائهم ولا باختيار منهم فى أنفسهم لأن بطركهم إنما يكون من تحت يد صاحب الإسكندرية وهو الذى ينبغى أن يصلح عليهم قاتوليقا الذى هو دون البطريرك ومن قبله ، فإذا بطرك عليهم هذا المذكور باسم القتلقة فليس له مطلقا أن يمطرن مطارنة كما يمطرنهم البطاركة ، لأنه إنما يكرم باسم البطريركية من غير أن يكون له سلطان ذلك(٣٣) .... »

ولهذا المطران المصرى مكانة محترمة فى نظر الحبشه ، كما أن لأوامر البطريق المصرى من الاعتبار بقدر ما لشريعته من الحرمة فى عين الأحباش».

يقول العمرى « وإذا كتب إليـــه — أى إلى ملك الحبشة — كتابا فأتى ذلك

---

(٢٩) انظر نص الخطاب في : Pankhurst, pp. 58-59

(٣٠) Bury, II, p. 322, Trim, p, 39, Budge, pp. 150,243

(٣١) الجواهر الحسان ص ٩

(٣٢) يلاحظ أن صلة الحبشة الدينية بمصر قد انقطعت خلال الاحتلال الإيطالى ، ثم استؤنفت عقب عودة هيلاسلاسى إلى الحكم . Trim., p. 25

المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٥ ص ٣٢٢–٣٢٣

(٣٣) ابن العسال : كتاب القوانين (قانون رقم ٤٢ من القوانين النيقية) ص ٢٣

الكتاب إلى أول مملكة ، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم ولا يزال يحمله بيده حتى يخرجه من أرضه وأرباب الدولة فى تلك الأرض كالقسوس والشمامسة حوله مشاة بالأدخنة ، فإذا خرجوا من أرضهم تلقاهم من يليهم أبدا ، كذلك فى كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى أمره ، فيخرج صاحبها بنفسه ـ أى الملك ـ ويفعل مثل ذلك الفعل الأول ، إلا أن المطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك ، ثم لا يتصرف الملك فى أمر ولا نهى ولا قليل ولا كثير حتى ينادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد فى الكنيسة ويقرأ والملك واقف ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمر به»(٣٤).

وخلال حكم الملك الأكسوس ال عامدا (Al 'Amida) دخلت الرهبانية والديرية حوالى عام ٤٨٠ م ، وذلك حين وفد على الحبشة عدد كبير من الرهبان وأسسوا عدة أديرة فى مناطق مختلفة ، منها منطقة تيجرى ، ويقال إن بعثة مكونة من تسعة رهبان قديسين من أصل سورى جاءت من مصر وروما ودخلت أثيوبيا بقصد إصلاح العقيدة وتأسيس الأديرة ، وينسب إلى أعضائها ترجمة الإنجيل من الإغريقية إلى لغة الجعز الوطنية ، بدليل وجود بعض الألفاظ السوريانية فى لغة الجعز ، أدخل هؤلاء الطقوس المتبعة فى الإسكندرية ، ومن أولئك التسعة الأب ألف (Alef) مؤسس دير بجزا والأب ميخائيل (Za-Michael)(٣٥) مؤسس دير برادامو فى تيجرى وهكذا . . ، ويبدو أن كلا من أولئك الرهبان التسعة قد أسس ديراً شمالى الحبشة وجمع حوله طائفة من الرهبان .

والملاحظ أن الرهبانية التى انتشرت فى الحبشة كانت على النظام الباخومى المصرى نسبة إلى الراهب باخوم (١٩٢ـ٣٤٦م) وهى الرهبانية الاجتماعية أو الديرية(٣٦) . وفى

(٣٤) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٠ـ٣١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨ـ٣٠٩ .

(٣٥) انظر عابدين ص ١٤

(٣٦) Munier (H.) : L'Egypte Byzantine (Précis de l'Hist. d'Egypte) T. II, pp. 14-18

النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، وفد كثير من الرهبان الأقباط من مصر وأدخلوا فى الحبشة عدة كتب دينية مثل كتاب الصلوات وأناجيل الحواريين وهذه كلها ترجمت إلى لغة الجعز(٣٧) .

هكذا كان دخول المسيحية وما تفرع عنهـا من نظم إلى الحبشة ، ولهذا أثره الكبير فى تاريخ الحبشة الدينى والسياسى ، إذ غدت الكنيسة الحبشية مرتبطة بكنيسة مصر منذ البداية ، وبكنيسة بيزنطة إلى حدما ، نظرا لأن الامبراطورية البيزنطية تعد نفسها حامية للمسيحية ، ومعنى هذا ارتباط الحبشة المسيحية بالحضارة الإغريقية المنتشرة فى حوض البحر الأبيض على نطاق أوسع مما كان عليه الأمر إبان وثنيتها . ومن جانب آخر ارتبطت الحبشة بالمسيحية فى جنوب بلاد العرب بل أضحت نائبة عن بيزنطة فى رعاية المسيحيين باليمن ونصرتهم عند الحـاجة. غير أن ارتباطها بالإسكندرية كان بطبيعة الحال أقوى من صلتها بغيرها ، ولا سيما بعد اعتناق العرب فى الجزيرة العربية للإسلام . وهناك الأثر الثقافى واللغوى ويتمثل الأخير فى دخول بعض تحسينات على اللغة الحبشية القديمة ، وتسرب بعض الألفاظ السوريانيـــة إليها(٣٨) .

على أن البارز فى أثر المسيحية فى الحبشة ، هو تعصبها الشديد لمسيحيتها يقول المقريزى : « والحبشة يتشددون فى دياناتهم تشددا زائدا ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويعادون الطائفة الملـكية (الملـكانية) من النصارى(٣٩) . ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام للحبشة من جميع الجهات تقريبا ونشاط الدعاية الإسلامية وازدياد الرقعة الإسلامية فى البلاد الحبشية ، كما أن اختلاط الأهداف السياسية بالحماس الدينى قد أدى إلى حدة هذا التعصب ،

---

(٣٧) Coulb. , pp. 168-170; Trim., pp. 22-23, 40; Budge, pp, 152-3

(٣٨) انظر عابدين ص ٢٠–٢١

(٣٩) الإلمام ص ٣

وربما كانت الأهداف السياسية هى الباعث الأكبر على الحروب التى نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التى جاورتها(٤٠) .

***

ومن حيث علاقة الحبشة ببلاد العرب قبل الإسلام ، فالملاحظ أن هذه العلاقة قد بدأت تجارية ، فيذكر عن دولة أكسوم فى أول بروزها أنها أخذت ترسل البعثات إلى الجهات المختلفة ومن بينها اليمن ، وحين بدأت توسعها الإقليمى ، عبرت البحر الأحمر، وأول غزولها فى اليمن كان فى الفترة الواقعة بين عامى ٢٧٧، ٢٩٠م واستطاعت بالفعل أن تستولى على اليمن فى الفترة ما بين ٣٠٠م ، ٣٧٨م واستولى الملك عيزانا على اليمن حوالى عام ٣٢٠م أو ٣٤٢م بدليل النقش الذى تركه مسجلا فتوحه(٤١)؛ غيرأن الحميريين (١١٥ ق م ـ ٥٢٥م) تمكنوا من طرد الحبشة التى ظلت تدعى سيادتها على اليمن . ولما كانت المسيحية قد انتشرت فى جنوب بلاد العرب ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تعتبر نفسها حامية للمسيحية ، وهناك ارتباط بين كنيسة الحبشة وبين بيزنطة ، فقد بدأ عامل جديد هو العامل الدينى ، لحث دولة أكسوم على التدخل فى اليمن لحماية المسيحية ، ويحتمل أن الغزو الحبشى تكرر على عهد الامبراطور البيزنطى زينو (٤٧٤ ـ ٤٩١م) أو أنسطاسى (٤٩١ ـ ٥١٨م) ، وخلال تلك الفترة أخذت اليهودية تزحف إلى اليمن من مستعمراتها بالحجاز فى يثرب وخيبر، على عهد الأمبراطور البيزنطى جستين الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) م ، وحينئذ ظهر أمير فى اليمن هو ذونواس الحميرى ، اعتنق اليهودية وحاول طرد الأحباش ، وعذب النصارى ، ويقال إن حملة الاضطهاد العنيفة التى شنها ضد النصارى فى بلاده ، كانت ردا على ما لحق اليهود من اضطهاد فى الامبراطورية البيزنطية(٤٢) . فضلا عن العامل الوطنى، تدخل ملك الحبشة

(٤٠) انظر عابدين ص ١٦٦ وما بعدها .
(٤١) انظر ما سبق .
(٤٢) Bury; p. 323

إلى أصبحه Ella Asbeha (٥١٤ ـ ٥٤٢م) واستعاد سلطانه عام ٥١٩/٥٢٠م .
غير أن ذا نواس استطاع التغلب على الحبشة واسترد سلطته وأمعن فى اضطهاد النصارى وتوجه إلى نجران عام ٥٢٣ م وطلب إلى أهلها اعتناق اليهودية فأبوا ، فقتلهم وعذبهم وحفر لهم أخدوداً ، وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ . . . »[٤٣] ثم أرسل ذو نواس إلى المنذر ملك الحيرة وحثه على أن يقضى على المسيحيين فى بلاده ، وحين وصلت سفارته إلى المنذر وهو فى معسكره بالرملة فى يناير سنة ٥٢٤ م كان بحضرته سمعان رئيس المينوفيزيتيين فى الامبراطورية الفارسية ، مرسلا من قبل الامبراطور جستين الأول ليفاوض المنذر فى الصلح ، فلما سمع ما فعله ذو نواس بنصارى نجران تملكه الفزع والرغبة فى الانتقام ، وأسرع لإشاعة هذا الخبر بين المسيحيين المينوفيزيتيين فى المدن الكبرى أمثال أنطاكية وطرسوس وغيرها[٤٤] .

أرسل بطريق الإسكندرية المعاصر يومئذ وهو تيموش (Timothy) رسالة إلى ملك الحبشة لينهض للانتقام لضحايا نجران ، ويحتمل أن الامبراطور جستين الأول كان قد اتفق مع بطريق الإسكندرية على مخاطبة ملك الحبشة وهذا فضلاً عن استنجاد نصارى نجران بملك أكسوم وكان رسولهم هو ذو ثعلبان الأصفر[٤٥] ، ولما لم يكن لدى إل أصبحه سفن كافية للغزو طلب مدداً من الامبراطور جستين ، وهو يعلم حق العلم العداء المزمن بين بيزنطة وفارس ، وأن الحميريين قد حالفوا الفرس وأن ذا نواس لا يعدو أن يكون صنيعة الفرس . بمعنى آخر إن نزاع الحبشة واليمن كان صدى للنزاع بين فارس والروم ، وسرعان ما استجاب أمبراطور بيزنطة ، فقام ملك الحبشة على رأس جيشه وقضى على ذى نواس ٥٢٤ م / ٥٢٥ م الذى آثر أن يقتحم البحر بفرسه على ألا يقع أسيراً فى يد الأحباش[٤٦] .

(٤٣) سورة البروج آية ٤ وما يليها .
(٤٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ؛ Bury, p. 234
(٤٥) ابن سعد الحميرى : منتخبات فى تاريخ اليمن ص ١٥
(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٨ ـ ١٧٠

ثم عين على اليمن مسيحيًّا من حمير هو سميفع أشوع (Esimiphaios) كملك تابع له[٤٧] .

كان هذا هو الوضع السياسى لليمن وأكسوم عند ما أرسل الامبراطور جستينيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) رسوله جوليان عام ٥٣١ م إلى بلاط ملك الحبشة وبلاط ملك حمير المسيحى ليفاوض الدولتين فى الاتحاد والتحالف ضد فارس ، ووافق ملك الحبشة ووعد بحرب اقتصادية ضد فارس مؤداها قيام الحبشة بالقضاء على احتكار الفرس لتجارة الحرير ، وذلك بالعمل على نقل هذه السلعة على سفن حبشية رأساً من سيلان إلى موانى البحر الأحمر ، وقد نجحت هذه السياسة وأفادت الحبشة ماديًّا . كذلك وافق ملك حمير باعتباره تابعاً لملك الحبشة . ولما كانت نجد فى ذلك الوقت خاضعة لحمير وأميرها قيس كان قد فر هارباً لقتله أحد أقرباء ملك حمير ، فقد فكر جستينيان فى استغلال هذه الحالة بأن يستصدر عفواً عن قيس ، على أن يقوم بمعاونة حمير حربيًّا ضد فارس ، غير أن حمير لم تستطع القيام بأى عمل حربى ضد فارس لبُعد الشقة[٤٨] .

قامت بعد ذلك فتنة فى اليمن انتهت بتدخل ملك الحبشة وهرب السميفع وتولية أبرهة (Ella Abreha) حاكما على اليمن وأرياط حاكما على حمير ، ولكن الأمور لم تلبث أن تعقدت بسبب تنافس أبرهة مع أرياط . تمكن أبرهة من قتل أرياط والاستقلال بحكم اليمن حوالى عام ٥٣١ م ، وقد جرح أبرهة خلال حربه ضد أرياط ومن أجل ذلك سمى الأشرم فقد شرم حاجباه وأنفه وشفته ، ورفض أبرهه دفع الجزية إلى النجاشى إل أصبحه ، ولما فشل النجاشى فى إقناعه ، وافق على جعله ملكا على اليمن ، وعندئذ انتحل أبرهة لنفسه لقب « ملك الحبشة ». أما النجاشى فيذكر عنه أنه بعد عودته من اليمن ترهّب وأرسل تاجه إلى بيت المقدس ليعلق بجوار قبر المسيح ، وربما كان النجاشى المعروف باسم « بيت إسرائيل » وهو ابن إل أصبحه هو الذى

(٤٧) عابدين ص ٥٧ ؛ Budge, pp. 261-263

(٤٨) Coulb., p. 183; Bury, pp. 325-7

اعترف بسلطة أبرهة باعتباره ملكا على اليمن ، ثم حكم فى الحبشة بعد بيت إسرائيل أخوه « جبره مسقل » (Gabra Maskal) أى عبد الصليب عام ٥٥٠ م وامتد حكمه حتى ٥٧٠ أو ٥٨٠ م[٤٩] .

وخلال تلك الفترة كان أبرهة فى اليمن يعمل على التوسع لحسابه دون نظر إلى النجاشى وبنى كنيسة فى صنعاء المعروفة باسم القليس (Kalis) (أى كنيسة) وجمّلها أروع تجميل ، وأرسل إلى ملك الحبشة ينبئه بأنه بنى له كنيسة رائعة ، وأنه يعزم على تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء ، كما أرسل إلى إمبراطور بيزنطة ـ جستنيان ـ ليساعده ، فأرسل له بعض قطع المرمر لزخرفة الكنيسة . ولما سمعت العرب بذلك ، قام رجل من كنانة واستطاع أن يدخل الكنيسة حيث عبث بمقدساتها ، فاستشاط أبرهة غضباً وصمم على هدم الكعبة ، وحشد جيشاً استخدم فيه الفيلة ، وهذه هى الحملة التى أرخ لها بعام الفيل حتى عام ٥٧١ م وأشير إليها فى القرآن الكريم « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . . » وقد فشلت . وفى ذلك العام ولد النبىّ صلى الله عليه وسلم .

توفى أبرهة بعد ذلك وخلفه ولداه يكسوم ومسروق ، وخلال حكم مسروق قامت ثورة وطنية باليمن تزعمها ذو يزن ، ثم ابنه من بعده وهو سيف بن ذى يزن وابنه الآخر معديكرب ، انتهت هذه الثورة بطرد الأحباش من اليمن بمساعدة الفرس ، وأضحت اليمن تابعة للفرس منذ عام ٥٩٠ م خلال حكم الملك الفارسى خسرو الثانى (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) ، وظلت كذلك حتى فتحها المسلمون عام ١٣ هـ (٦٣٤ م)[٥٠] ومنذ تلك الفترة بدأت دولة أكسوم الحبشية فى التدهور والانحلال[٥١] .

---

(٤٩) Budge, pp. 263-265

(٥٠) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦٩ ـ ١٧٦ ، ١٧٨ ـ ١٧٩ ؛ منتخبات فى تاريخ اليمن ص ٥٥ ؛ الجواهر الحسان ص ١١

(٥١) Trim., p. 42; Budge, pp. 262-9

تلك صفحة من تاريخ الحبشة وعلاقتها ببلاد العرب حتى قبيل ظهور الإسلام أى حتى مطلع القرن السابع الميلادى ، وهو القرن الذى شهد انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية .

فلما ظهر الإسلام واشتد إيذاء قريش للنبي وأصحابه ، ورأى الرسول مايصيب أصحابه من البلاء وأن عمه أبا طالب لايستطيع أن يمنعهم مماهم فيه من بلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »[٥٢]. وتذكر المراجع العربية أن هذا الملك الحبشى هو أصحمه ابن الحر أو ابن أبجر وتفسر كلمة أصحمة بكلمة (عطية)[٥٣]. وتكاد تتفق المراجع الأجنبية على هذا الاسم Ella Saham أو Ella Asham وهو أبو أرماح (Armach)[٥٤] الذى يعتبره Coulbeaux أنه الملك الحبشى المعاصر للنبي[٥٥] وقد أورد السيوطى عدة أسماء له كلها متشابه منها : صحمه وصمحه وأصمحه ومصمحه وأصخمه وأصحبه[٥٦] .

ويرجح أن الرسول قد نصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة نظرا لمعرفة العرب بأرض الحبشة خلال الاتصالات التجارية القديمة ، يقول الديار بكرى : « وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش »[٥٧] كذلك كان لنهوض الحبشة للأخذ بيد المسيحيين المضطهدين باليمن أثر فى هذا الاتجاه الإفريقى ، وإلى هذا وذاك يضم تأثر ملك الحبشة بتعاليم المسيحية والرهبنة اللتين وفدتا إليه من مصر .

(٥٢) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ج ١ ص٣٤٣ ؛ السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٤ .

(٥٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٢ ؛ الروض الأنف ج ١ ص ٢٠١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢

(٥٤) Budge, pp. 271-3; Trim., p. 46

(٥٥) Coulb., pp. 205-7

(٥٦) السيوطى : رفع شأن الحبشان (مخطوط رقم ٧٢٦ تاريخ تيمور بدار الكتب) ورقة ٤٨ ؛ انظر كذلك : تنوير الغبش .

(٥٧) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ج ١ ص ٢٨٨

خرج المهاجرون الأولون قاصدين الحبشة ، فى رجب من السنة الخامسة من البعثة والثانية من إظهار الدعوة وذلك عام ٦١٥م وعبروا البحر فى مجموعات قليلة ، ويقال إنهم استأجروا سفينة بنصف دينار[٥٨] ومن أوائل هذا النفر عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من بنى أمية، ومن بنى عبدشمس : أبوحذيفة بن عتبة وامرأته سهلة التى ولدت له بأرض الحبشة ابنه محمد ، ومن بنى أسد الزبير بن العوام، ومن بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى عبد الدار مصعب بن عمر وغيرهم ؟ ثم خرج جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء ، وهذه ولدت له بالحبشة ابنه عبد الله وتتابع المسلمون ، حتى بلغ عدد المهاجرين نحو ٨٣ رجلا باستثناء أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بالحبشة[٥٩] .

أمن المسلمون بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشى وعبدالله ، وأحسن النجاشى جوارهم . تقول أم سلمة : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى : أمننا على ديننا وعبدنا الله تعالى لانؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه[٦٠] .

وقد ذكر بصدد هذه الهجرة كثير من الشعر يصف ما كان يقاسيه المهاجرون من اضطهاد وما آل أمرهم إليه من إعزاز وتكريم ويتناول بعضه عتاب قريش وتقريعها على كفرها وموقفها . من ذلك قول أحد المهاجرين وهو عبد الله بن الحارث ابن قيس بن عدى :

كل امرئ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون

---

(٥٨) المصدر السابق .

(٥٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٥٣ ؛ الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٨ ؛ الخميس ج ١ ص ٢٧٩ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٢٣

(٦٠) الروض الأنف ج ١ ص ٢١١ ؛ تنوير الغبش .

وقوله :

تلك قريش تجحد الله حقه كما جحدت عاد ومدين والحجر[٦١] .

ولا نريد أن نستطرد فى ذكر أمثال هجرات المضطهدين من أصحاب العقائد والمذاهب فهذا أمر معروف فى التاريخ ، فاضطهاد المسيحيين واضح على يد الأباطرة الوثنيين مما كان من بين أسباب نشوء الرهبنة والديرية ، واضطهاد أصحاب المذاهب المختلفة ، ثم ماعرف فى فجر العصور الحديثة من اضطهاد أصحاب العقائد المخالفة مما كان من بين نتائجه نشوء بعض المستعمرات الإنجليزية على الساحل الشرقى لأمريكا .. وهكذا . . .

أما قريش ، فقد آلمها أن ترى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم آمنين بأرض الحبشة ، حيث أصابوا الدار والقرار ، فأتمرت بينها وقر رأيها على إيفاد سفارة إلى النجاشى .. تطلب عودة المهاجرين ، وعضوا هذه السفارة رجلان جليدان هما : عمرو ابن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ؛ جمعت لهما قريش الهدايا للنجاشى ورجال حاشيته ، ولما علم أبو طالب بما استقر عليه عزم قريش ، بعث برسالة إلى النجاشى يوصيه بابنه وصحبه ومما جاء فى هذه الرسالة :

تعلم ، أبيتَ اللعن ، أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادى نفعها والأقارب[٦٢]

اقتضت خطة قريش أن تبدأ السفارة بتقديم الهدايا أولا إلى بطارقة النجاشى قبل الاتصال به حتى تضمن معاونة هؤلاء البطارقة ، تقدم القاصدان إلى البطارقة بقولهما :

(٦١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧ ؛ المصادر السابقة .

(٦٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢١ ـ ٢٢ ؛ الروض الأنف جـ ١ ص ٢١١ ـ ٢١٢ ؛ الخميس جـ ١ ص ٢٨٩ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٧ ؛ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧

« إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم »[٦٣] .

وعد البطارقة بالإيجاب ؛ وفى حضرة الملك أعاد السفيران مقالتهما السابقة وأمّن البطارقة على ماقالوا ، غير أن النجاشى غضب، قائلا : « لا ها الله إذ لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون ، أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى » .

استدعى النجاشى المهاجرين وسألهم : ما هــذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ وهنا انبرى جعفر بن أبى طالب وتحدث عن المهاجرين مجيبا النجاشى :

« أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة،وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين

---

(٦٣) الروض الأنف جـ ١ ص ٢١٢

دينننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك »[٦٤].

ولما سأله النجاشى عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله ، قرأ عليه صدرا من سورة مريم : كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا . . فبكى النجاشى كما بكى من حوله من أساقفة ثم عقب بقوله : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة والتفت لسفيرى قريش رافضا ما طلبا بقوله .. أدفع إليكم قوما فى جوارى على دين الحق وأنتم على دين الباطل ؟ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون[٦٥].

حينئذ أيقن السفيران بفشل ما سفرا فيه ، فقال عمرو لزميله : « والله لآتينه غدا بما أستأصل بهخضراءهم » وحاول زميله صرفه عما اعتزم القيام به بحجة أن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفوا قومهم ، ولكن عمرو لم يعدل عن تصميمه ، وغدا على النجاشى صبيحة اليوم التالى وقال له:« إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما، إنهم يزعمون أن المسيح عبد مملوك» حقيقة تغير قلب النجاشى، لكنه لم يشأ أن يتخذ بشأنهم قرارا حتى يناقشهم ، فاستقدمهم وسألهم عما يقولونه فى عيسى ، فأجاب جعفر : نقول فيه الذى جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول[٦٦] فضرب النجاشى الأرض بيده وأخذ منها عودا ثم قال:« والله ماعدا عيسى بن مريم عما قلت هذا العود ! اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى (أى آمنون) » وكأنه أراد أن يقطع كل حديث ومحاولة بشأن المهاجرين ، فرد على قريش هداياها وقال :

---

(٦٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٢١ ؛ الخميس ج ١ ص ٢٩٠، ٢٩١ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٨؛ رفع شأن الحبشان ورقة ٢٤ ــ ٣٠

(٦٥) اليعقوبى ج ٢ ص٢١ ؛ ابن الأثير ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ؛ الروض الأنف ج ١ ص٢١٣

(٦٦) الخميسى ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ؛ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١

« لا حاجة لى بها ، فوالله ماأخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه »[٦٧] .

على هذا النحو كانت حماية النجاشى للمهاجرين الأولين من المسلمين أوائل القرن السابع الميلادى ولم ينثن هؤلاء المسلمون عن رد صنيعه حتى لاحت الفرصة وكان ذلك عندمانشب نزاع بينه وبين منافس له على العرش ـ لعله من أبناء عمه ـ فخشى المسلمون أن ينتصر المنافس وهو لايعرف من حق المهاجرين ما يعرفه النجاشى ومن ثم انضموا إليه فى القتال حيث برز الزبير بن العوام وصحبه حتى انتصر صاحبهم[٦٨] .

ظل المهاجرون فى أرض الحبشة ، وولد لهم الأولاد بل أن أولاد جعفر بن أبى طالب قد ولدوا بأرض الحبشة وقد عاد بعضهم على أثر ظهور أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة[٦٩] وفى عام ٦٢٧م ، وهى السنة الخامسة للهجرة ، أرسل النبى صلى الله عليه وسلم للنجاشى رسولا من قبله هو عمرو بن أمية الضمرى لإعادة المهاجرين[٧٠] ويقال إن عبيد الله بن جحش وهو من المهاجرين ظل بالحبشة وارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، وأخذ يغرى المسلمين على الارتداد وتعتبر ردته هذه أول ردة فى الإسلام[٧١] .

***

(٦٧) يشير النجاشى فى إجابته هذه إلى قصة زوال الملك عنه ورجوعه إليه ، وتلخص فى ثورة قامت بالحبشة ، انتهت بقتل أبيه وتولية عمه ، فعاش ابن القتيل فى رعاية عمه حتى غلب عليه أمره بحذقه ونبوغه ، وحينئذ خشى أنصار عمه من أن ينتهى الأمر بنقل الملك إليه ، فينتقم منهم لمقتل أبيه ، ولذلك سعوا فيه عند عمه حتى أذن لهم ببيعه ، فباعوه ، وفى ذلك الوقت قتل عمه بصاعقة ، ولم يكن هناك من أبناء ذلك العم من يصلح للملك ؛ ولذا أسرع الأحباش واسترجعوا من باعوه وولوه ملكا عليهم (الروض الأنف جـ ١ ص ٢١٣ ؛ سيرة ابن هشام ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ ؛ الخميس جـ ٢ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٤٩ ـ ٥٠) .

(٦٨) المراجع السابقة .

(٦٩) الخميس جـ ١ ص ٢٩١

(٧٠) الروض الأنف جـ ١ ص ٢١٤ ؛ اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٢

(٧١) الطراز المنقوش ورقة ٢٢ـ٢٤

أما عن إسلام النجاشي فقد جاء بصدده أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل في عام ٦ هـ كتابا إليه يدعوه فيه إلى الإسلام ، ورسوله هو عمرو بن أمية ونص الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ـ سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى »(٧٢) .

أجاب النجاشي بهذه الرسالة التي أظهر فيها قبوله للإسلام ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمه ـ سلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام . أما بعد ، فقد وصلني كتابك يارسول الله ، فماذكرت فيه من أمر عيسى بن مريم ، فورب السماء والأرض أن عيسى ابن مريم لايزيد على ماذكرت ثفروقا واحدا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا مابعثت به إلينا ، وشهدنا بأنك رسول الله ، صادقا مصدقا ، وقدبايعتك بواسطة ابن عمك جعفر وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر ، فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله فإني أشهد أن ما تقوله حق ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ... »

وعند ما تسلم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة ، علق بقوله : « اتركوا الحبشة ماتركوكم » . ولما بلغه نبأ وفاة النجاشي عام ٩هـ (٦٣٠م) قال: « توفى اليوم

---

(٧٢) ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٠١ ؛ ابن خلدون : تاريخه جـ ٢ ص ٣٦ ــ ٣٧ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٩

رجل صالح من الحبشة ، فهلموا فصلوا عليه »[٧٣] . وهناك رسالة أخرى أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم لخطبة أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي التي ارتد زوجها عبد الله بن جحش فأجاب النجاشي ودفع لها الصداق وأرسلها محملة بالهدايا[٧٤] .

أما أن النجاشي أعلن قبوله للإسلام فهذا أمر يكاد يكون محققا إذ أجمعت عليه المراجع العربية تقريبا ، أما أنه اعتنق الإسلام فعلا وآمن وترك النصرانية ، فهذا ما لا يمكن التحقق منه إثباتا أو نفيا ، ويرى بعض المحدثين أن النجاشي أظهر الإسلام هو وأساقفته لهدف سياسي بحت لابدافع العقيدة الدينية ، فقد رأى انتصارات الإسلام الساحقة داخل الجزيرة العربية ، وخشي من امتداد الفتوح الإسلامية إلى بلاده ، وهو في وضع لا يمكنه من الدفاع أو المقاومة كما أنه لايجب أن يدخل في حرب تنجلي عن قتل كثير من رعاياه ومن ثم كانت دبلوماسية في إظهاره للإسلام وإرسال الهدايا وإنقاذ بلاده وحمايتها من التعرض للغزو والفتح. ويدعم صاحب هذا الرأي تفسيره بأن الحبشة، من بين سائر بلاد الشرق الأوسط، استطاعت أن تحتفظ بنصرانيتها بعد حكم أرماح[٧٥]

وعلى ذلك يمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام في الحبشة بالهجرة الأولى وإظهار النجاشي أرماح (أصحمة) للإسلام وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية ، بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأضحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولاسيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقيـــة بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل العربي للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء ، الحدود الحبشية وأسسوا

---

(٧٣) الطبري ج ٢ ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٧ ؛ الجواهر الحسان ص١٣ـ١٤؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٥١ ــ ٥٤

(٧٤) الخميس ج ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ ؛ السيوطي : أزهار العروش في أخبار الحبوش (مصور عن نسخة بالأسكوريال ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) — غير مرقم الصفحات .

(٧٥) Budge, p. 273

لهم مراكز استقرار بالتدريج ، بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا فى ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة ، فأدى ذلك إلى حرمان الحبشة منه ، وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجى إلا عن طريقهم ، فلم يعد هناك مخرج للمنتجات الحبشية ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى القضاء على تجارة الحبشة الخارجية ، وإلى قلة عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أكسوم(٧٦) فضعف العنصر الإغريقى وزالت اللغة الإغريقية التى كانت لغة الثقافة بالعاصمة وذبلت بزوالها الحضارة الهللينية ويقال إن آخر كتاب ترجم عن اللغة الإغريقية إلى لغة الجعز هو كتاب المسائل الدينية وذلك عام ٦٧٨م كما تركت دراسة الآداب القديمة ، وقل بناء الكنائس ولم تعد تضرب عملة جديدة. وآخر عملة ضربت فى أكسوم تحمل اسم جرسم (Gersem) وحاتاز الثانى (Hataz) ويرجع تاريخ هذه العملة إلى الفترة بين بداية القرن الثامن والقرن العاشر الميلادى . اقترن هذا التدهور العام بضعف السلطة المركزية وقيام الحكام المحليين بمنافسة بعضهم البعض والتوسع على حساب جيرانهم؛ ويعتبر أولئك الحكام أتباعا أو أفصالا ، (Vassals) للملك لا يخضعون له إلا إذا كان قويا قادرا على بسط نفوذه عليهم . هذا وقد ضعف أمر العقيدة المسيحية نفسها برجوع كثير من سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية عن المسيحية والعودة إلى اعتناق الوثنية القديمة(٧٧) .

وفى وسط هذه الغمرة التى انحطت فيها مملكة أكسوم كان الإسلام يسير بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل وتكونت للمسلمين مراكز استقرار على طول الساحل الشرقى لإفريقية امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقدشو ومركا وبراقا وممبسا وزنزبار وكلوه على المحيط الهندى .

امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيا ، واعتنقته

---

(٧٦) Ibid, p. 274

(٧٧) Budge, p. 274; Trim., pp. 47-8

عناصر الساهو والعفر شرقى الحبشة ، كما أنه امتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية جنوب الحبشة ، وسرعان ما تأثرت به القبائل الصومالية بعد ذلك[٧٨] .

وربما كان أول احتلال رسمى لبعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر تجاه الساحل الإفريقى ماحدث عام ٨٣هـ (٧٠٢م) على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموى (٦٥ـ ٨٦هـ=٦٨٥ ـ ٧٠٥م) كان ذلك حين تعرضت سواحل جزيرة العرب وتجارة العرب لنهب القراصنة الأحباش ، فقد سطا هؤلاء على ميناء جـدة واستباحوها فى ذلك العام ، مما أدخل الرعب والفزع فى قلوب سكان مكة ، وحينئذ اضطر الخليفة إلى العمل على الضرب على أيديهم بوسائل فعـالة ، واستقر الرأى على احتلال مجموعة جزائر دهلك تجاه ميناء مصوع ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحرات وكبارى ودركه ونوره ونقره وكمران ، والأخيرة أكبر هـذه المجموعة[٧٩] . ورغم أن الاحتلال العربى الإسلامى قد تم فإن هذا لم يحل دون تكرر هجمات القراصنة من ذلك هجومهم على ثغر جدة عام ١٥٣هـ (٧٧٠م) فاضطر الخليفة أبو جعفر المنصور إلى إرسال جيش لتفريق شملهم[٨٠] ..

أما منطقة البجة ، فالمعروف أن أول اتصال بها كان يوم هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولى ، وكتب لهم كتابا فرض عليهم به جعلا إذا نزلوا بريف مصر تجارا غير مقيمين كما اشترط عليهم ألا يقتلوا مسلما أو ذميا ؛ فكثر المسلمون فى بلادهم وشجعهم على ذلك غنى منطقـة البجة بمعادن الذهب والزمرد والفضـة والنحاس والرصاص والحديد، امتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجة فى الإسلام ولو أن إسلامهم كان ضعيفا كما أنهم لم يكفوا أذاهم عن المسلمين وهذا ما حمل الخليفة عبد الله المأمون على إرسـال جيش لتأديبهم ، قام هذا

---

(٧٨) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٥١ ؛ Trim., pp. 51,60

(٧٩) الإلمام ص ٢٢ ؛ بوصيلى ص ٧ ـ ٨ ؛ Trim. 46-7

(٨٠) الجواهر الحسان ص ١٥

الجيش بقيادة عبد الله بن الجهم وقمعهم ثم وادعهم بكتاب كتبه لملكهم كنون بن عبد العزيز المقيم فى هجر وذلك عام ٢١٦ ﻫ (٨٣١)م ومما جاء فى هذا الكتاب ...«هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين .. لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان ... أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد مابين دهلك وباضع ملكا للمأمون..وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين...وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام، على ما كان عايه سلف البجة وذلك مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار ..» ثم حذرهم من الاعتداء على المسلمين ، وإن دخل أحد من المسلمين تاجرا أو مقيما أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم .. ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول فى بلادكم للتجارة فيها براوبحرا ... لا تهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا .

غير أن غاراتهم لم تنقطع فتجددت على عهد المتوكل الذى أسرع بإرسال جيش بقيادة محمد بن الله القمى عام ٢٤١ ﻫ (٨٥٥م) قمعهم به وصالحهم وتضمن كتاب الصلح عدم التعرض لأحد من المسلمين يريد العمل فى استغلال المعادن .

تزايد عدد المسلمين المهاجرين والمقيمين فى منطقة المعادن بالبجة وأشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين بحيث لم يأت القرن الرابع الهجرى إلا وكان صاحب مناجم الذهب وغيره من المعادن هوبشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة وازدادت قوته حتى كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن[٨٢]

---

(٨١) المقريزى : الخطط ﺣ ١ ص ١٩٤ـ١٩٥

(٨٢) مروج الذهب ﺣ ١ ص ١٨٩ ؛ صبح الأعشى ﺣ ٥ ص ٢٧٣ـ٢٧٤

ومن حيث العناصر البجاوية ومدى انتشار الإسلام بينها فالواضح أن العنصر السائد فى منطقة هجر هو عنصر نقيس البجاوى ومن فروع نقيس الحدارب وهؤلاء الأخـيرون هم الذين أسلموا وعاونوا العرب المشتغلين بالمعادن. وهناك من يقـول إن الحدارب من العرب ، وهم يتحكمون فى سواكن ولهم اتصال بسلاطين مصر من المماليك ، ويعرف زعيم الحدارب لدى أولئك السلاطين باسم الحدربى(٨٣) أما الفروع الأخرى لنقيس أمثال عماعر ومناسة ، والزنافج ، فقـد بقيت على الوثنية مع مسالمتها للعرب(٨٤) .

ومن المراكز الإسلامية التى تأسست فى منطقة شوا الشرقية مملـكة يحتمل أنها قامت حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى ونهاية القرن التاسع الميلادى (٢٨٣ـ٨٩٦) بزعامة أسرة عربية تنتسب إلى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب إليها خالد بن الوليد ، يقال إن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب (٨٥) كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى فى تلك المنطقـة وما يليها شرقا فى عدال (Adal) وموروا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعا لم تعمر طويلا نظر للخلافات والتنافس فيما بينهما فضلا عن أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ولاسيما تجارة الرق،فسرعان ماطوتها أقوى الإمارات الإسلامية فى الوطن الحبشى وهى أمارة أوفات (٨٦).

ولعل الفترة البارزة فى التوسع الإسلامى فى إفريقية الشرقية ، تقع بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلاديين ، فهذه فترة التوسع المنظم للإسلام دينا ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ولو على حساب بعضها البعض،

---

(٨٣) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٣٧٤

(٨٤) مروج الذهب حـ ١ ص ١٨١ ؛ اليعقوبى حـ ١ ص ١٥٥ ؛ خطط حـ ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ ؛ Trim., pp. 50-51

(٨٥) Trim., p. 58

(٨٦) انظر ما يلى :

داخل الوطن الأثيوبى ، فمثلا تحولت منطقة جوبا إلى الإسلام حوالى عام ١١٠٨م ، وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى[٨٧] .

والملاحظ أن الرقعة الإسلامية بإفريقية الشرقية عامة، قد أحاطت بالحبشة من الناحية الشرقية « وتقابل اليمن فى الجزيرة العربية». ومن أجل هذا الوضع الجغرافى نعتها المؤرخون بمنطقة « الطراز الإسلامى » لأنها على جانب البحر كالطراز له[٨٨] .

اشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهى :أوفات، دوارو وأرابينى وهديه وشرخا وبالى وداره[٨٩] وهذه عدا المشيخات الإسلامية الممتدة على الساحل مثل عوان ومقدشو وكلوه وغيرها .

وقبل أن تتناول الحديث عن كل منها تفصيلا نقرر بعض الملاحظات الهامة : إن تكوين هذه الممالك قد اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية[٩٠] ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية « فى أول أمرها على الأقل » .ويرجع ذلك إلى أن الحبشة هى موطن الهجرة الإسلامية الأولى « حيث أصاب المسلمون الدار والقرار » فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى الخارجى وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق. « يقول ابن بطوطة » وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج

(٨٧) Trim., p.62

(٨٨) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٤

(٨٩) العمرى : مسالك الأبصار جـ١ ص١١ـ١٢ ، النسخه المخطوطه جـ٢ ق٣ ورقه ١٨٤

(٩٠) بوصيلى ص ٨ـ٩

ماء وهى لطائفة الزيالعة السودان[٩١] . وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر ، يعرف برواق الجبرتية .

ورغم هذه الصلة والارتباط ، فإنها كانت فيما بينها مفككة الأوصال ، لم يجمع بينها سوى الرباط الروحى ، فكثرت المنافسات واشتد النزاع حتى فى داخل الإمارة الواحدة مما أضعفها جميعا . . يقول عبد الله الزيلعى « لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة أو التماسك ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة ، بينهم تنافس ومنهم من يترامى إلى صاحب أمحرة ويميل إليه بالطباع[٩٢] . وبجانب هذه المنازعات تعتبر إماراتهم فقيرة من حيث الموارد الطبيعية رغم تحكمها فى التجارة » وفى هذا الصدد يقول المقريزى ـ « وكلها ممالك ضعيفة قليلة المتحصل »[٩٣] .

أما الوضع السياسى لهذه الممالك فهى خاضعة لملك الحبشة ، ويعد المؤرخون أمراءها من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يده ، وهو بهم تمام المائة . ورغم أن الملك فى هذه الإمارات وراثى فى أسر معينة[٩٤] إلا أن أمراءها لا يتولون العرش إلا بأمر من الحطى وموافقته ، فإذا مات أحدهم وكان من أهل بيته من يصلح للملك ، توجه إلى الحطى متزلفا إليه ، ومن ثم فجميع أمراء هذه الممالك لا يخرجون عن كونهم نوابا له[٩٥] .

وعلى هذه الممالك ضرائب معينة فى كل سنة تدفع لملك الحبشة من القماش والحرير والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق[٩٦] ، وتنفرد إمارة هدية بجزية من

---

(٩١) ابن بطوطه : تحفة النظار جـ ٢ ص ٧٣

(٩٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ، مسالك الأبصار (مخطوط) جـ ٢ ق ٣ ورقه ٤٧٧

(٩٣) الإلمام ص ٦

(٩٤) انظر سلطنة بالى .

(٩٥) الإلمام ص ٨ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢

(٩٦) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٣

نوع خاص ، وهى تقديم بنت من بناتها المسلمات فى كل سنة ينصرها الحطى لنفسه ، وقد جرت هذه العادة بمقتضى معاهدة . يقول أهل هدية : « وحكم علينا . . ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا ، وإذا أرسل إلينا الذى يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على السرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلى عليها ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ، فإنا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك »(٩٧) وهذا رغم ماهو معروف عن هدية بأنها أكثر الإمارات الإسلامية خيلا ورجالا ، ولعل أرجح تفسير لهذا التقليد هو ماهم عليه من ضعف الدين(٩٨) .

أما نظم الحكم ومظاهره فى هـذه الممالك فهى متشابهة من حيث إن الملوك يتصدون للحكم بأنفسهم وإن كان لديهم القضاة والعلماء ؛ وجرت العادة أن يجلس الملك على كرسى من حديد مطعم بالذهب وحوله أكابر الأمراء جلوس فوق مقاعد أقل ارتفاعا من مقعد الملك ، وبقية الأمراء وقوف ، ولهم مواكب تقدمها الحجاب والنقباء لإفساح الطريق ويدق بالطبول أمام الملك وهذه الطبول معلقة فى أعناق الرجال وتسمى الواحدة منها بالوطواط وأعظم هؤلاء الملوك ملك أوفات. إذا مشى توكأ على يدى رجلين. ونظام الأعطيات للجند ، ليس كما هو فى سلطنة المماليك المعاصرة لهم ، من حيث الإقطاعات أو الجوامك أو نحوها . وإنما لجنود هذه الممالك دواب سائمة ، ومن شاء منهم الزراعة فليزرع واستغل الأرض دون اعتراض ، وجرت عادة الملك أن يوزع على جنوده وأمراء جيشه بقراً فى كل عام وأكثر مايعطى للأمير الكبير ٢٠٠ بقرة »(٩٩) .

ومن حيث زى هذه الممالك الإسلامية : جرت العادة أن يعصب الملك رأسه بعصائب من حرير تدور برأسه مع بقاء وسط رأسه مكشوفا ، أما الجنود والأمراء فلهم عصائب

---

(٩٧) عابدين ص ١٥٧ـ١٥٨

(٩٨) انظر ما يلى

(٩٩) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٤ـ٣٣٥ ، مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقه ٤٨١

من قطن ، ويلبس الفقهاء العمائم ، ويلبس العوام الكوافى البيضاء ويركبون الخيول بغير سرج ، وإنما توضع قطع من الجلد على ظهورها وسلاحهم الحراب والنشاب[١٠٠].

وهذه الممالك عامة زراعية ، تعيش عيشة متوسطة ، ومساكنها متواضعة تبنى من الطين والاحجار والخشب ؛ وربما لخص المقريزى مظاهر أمرائها بقوله : « لافخامة لأمورهم »[١٠١] ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أهلها يحافظون على دينهم وعندهم المساجد والجوامع حيث تقام الجمع والجماعات ؛ ومع وجود العلماء والفقهاء والزهاد فليس لديهم مدارس أو خانقاهات أو ربط أو الزوايا على النحو المعروف فى مصر المعاصرة . والمذهب السائد فيها جميعا هو المذهب الحنفى باستثناء أوفات فإن غالب أهلها على الشافعية مع وجود الأحناف[١٠٢] .

أما التعامل فى سائر هذه الممالك فهو بالمقايضة سوى أوفات التى تجرى فيها الدملة المصرية ، ودوارو حيث يوجد نوع من العملة وحدتها قطعة من الحديد تسمى الحَكْنة وجمعها حَكْنات ، وهى كما يصفها العمرى والمقريزى ، طول الإبرة فى عرض ثلاث إبرات ويبلغ ثمن البقرة مثلا بهذه الحكنات من ٧٠٠ ــ ٥٠٠٠ حكنة ورأس الغنم بثلاثة آلاف وهكذا[١٠٣] . وربما كانت الحكنة معروفة فى سائر الممالك الإسلامية بالحبشة ومعترفا بها إلا فى أوفات[١٠٤] . ووحدة الكيل مكيال يسمى الرابعية ويعادل الويبة بالكيل المصرى كما وإن وحدة الموازين هى الرطل وزنته اثنتا عشرة أوقية ، كل أوقية عشرة دراهم وأسعارها بصفة عامة رخيصة حتى قيل إن باستطاعة الإنسان أن يشترى حمل بغل من الحنطة بدرهم ، وأما الشعير فلاقيمة له[١٠٥] .

نعرض بعد ذلك لهذه السلطنات كل سلطنة على حدة[١٠٦] :

---

(١٠٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣–٣٣٤
(١٩١) الإلمام ص ٦
(١٠٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤ ، الإلمام ص ٧
(١٠٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١ ، الإلمام ص ٧
(١٠٤) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١
(١٠٥) المصادر السابقة .
(١٠٦) انظر الخريطة .

سلطنة أوفات: تعتبر أقوى سلطنة إسلامية قامت فى الحبشة، بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من الحجاز واستوطن مدينة أوفات أو لوفات ، وقد اشتهر قوم منهم بالصلاح ، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب « ولشمع » ؛ حكم مدينة أوفات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشى الذى ولاه لما نبه ذكره ؛ ظل على ذلك حتى قوى أمره ؛ ومدينة أوفات هى جبرة أو جبرت من أكبر مدن الحبشة وتقع غربى زيلع .

ويبدو أن تاريخها لم يتضح إلا حوالى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) حين أورث عمر هذه السلطة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحداً بعد آخر وذلك بموافقة ملك الحبشة . ومن هؤلاء الورثة وسلالتهم من بعدهم من خرج على طاعة الحطى ، ومنهم من سار وفق إرادته وأوامره ، وأول من خرج منهم على سلطان ملك الحبشة : على ، حفيد عمر ولشمع ، لكنه لم يلبث أن عاد لطاعته حين عزت أنصاره . كما أن أول من استبد بالأمور وحارب ملك الحبشة فعلا وأسر الكثير من عساكره وغنم من أمواله : حق الدين الذى استطاع أن يجمع حوله الناس وأن يهزم جيوش الملك الحبشى سيف أرعد (١٣٤٤ ــ ١٣٧٢ م). ثم إن حق الدين هذا أول من خرج على أهله وحاربهم فقد اشتهر فى أول أمره بالصلاح والتقوى ثم ما لبث أن رأى انصراف جده على عنه ، وكراهية عميه له وهما : ملا أصفح وأبو بكر . انتهى أمره بإخراجه من مدينة أوفات ليقوم بجباية الضرائب ببعض النواحى التابعة لها ، وهناك عمل على تدعيم قوته وتكوين عصبة قوية من الأتباع ، استطاع بهذه العصبة أن يحارب عمه أبا بكر ويقتله ، فاستنجد العم الآخر ملا أصفح بسيف أرعد لكنه انتصر عليه ، وقتل هذا العم . وأخيراً هجر حق الدين مدينة أوفات العاصمة ، وأمر الكثير من أهلها بالهجرة معه إلى عاصمة أخرى أسسها فى منطقة شوا ، وسماها وحل ، حيث سكن وأسكن من

هاجر معه من أوفات ، ومنذ ذلك الوقت انحطت مدينة أوفات وتخربت ولم تعد دار ملك[١٠٧] .

والمعروف أن مدينة أوفات هي جبره أوجبرت ، وغلب اسمها على المنطقة المحيطة بها ، فيقال أوفات أو جبرت[١٠٨] ويقصد بذلك جميع المنطقة بما فيها ميناء زيلع[١٠٩] ، وتعتبر هذه الإمارت أقرب الإمارات الإسلامية فى الحبشة ، إلى السواحل المسامتة لليمن وإلى مصر . وسلطان هذه الإمارة أقوى السلاطين المسلمين المجـــاورين له ، فـكانوا يدينون له بالإحترام والتقدير ، بل إن الجميع كما يقول القلقشندى : « منقادون إليه »[١١٠] .

تبلغ قوة هـذا السلطان العسكرية نحو ١٥ ألف فارس وأكثر من ٢٠ ألف راجل[١١١] وتتبعه إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما : مورا (Mora) وعدال (Adal) ورغم أنه ليس من المعروف بدقة ، الوقت الذى اعتنق فيــه رعايا أوفات الإسلام ، إلا أنه من أوفات وملحقاتها أخذ الإســـلام يتسرب وينتشر فى منطقة شوا المحاذية غربا[١١٢] .

أما الأحوال العامة لهذه السلطنة ، فهى خصبة التربة موفورة الماء من المطر ولها نهر صغير يجرى فيها ، ومن منتجاتها قصب السكر والفاكهة والخضروات والحبوب مثل الحنطة والشعير والذرة . وتعتبر من حيث الأسعار رخيصة حتى إن عرجون الموز الذى يضم نحو ١٠٠ موزة يباع بربع درهم ، كما يبـاع طابق اللحم بدرهم ونصف ، وزنة الطابق ٣٠ رطلا[١١٣] . وتجرى المعاملة فى أوفات بدنانير مصر ودراهمها الواصلة

---

(١٠٧) الإلمام ص ٩ — ١١ ، ٢٦ ؛ مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٨ — ٤٨١

(١٠٨) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٥

(١٠٩) الإلمام ص ٦

(١١٠) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٢

(١١١) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧ ؛ المصادر السابقة .

(١١٢) Trim., p. 67

(١١٣) الإلمام ص ٦

إليها صحبة التجار ، وكذلك تتعامل بالذهب الذى يجلب إليها من منطقتى داموت وسحام وتساوى الأوقية منه من ٨٠ ـ ١٢٠ درهما على قدر جودة الذهب . أى أنه ليس لأوفات سكة مضروبة ، لأنه لو ضربت إحدى هذه الإمارات سكة فى بلادها لم ترج فى بلاد غيرها ويتكلم أهل أوفات العربية والحبشية ودينهم الإسلام على المذهب الشافعى مع وجود بعض الأحناف بينهم[١١٤] .

وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، ولو أنها خضت فترة من الزمن لمملكة داموت الوثنية ، ولكن هذا الخضوع لم يدم طويلا ، إذ وقع فى مطلع تكوينها على عهد مؤسسها ولشمع ، ثم لم تلبث أن استعادت سيادتها واستقلالها بل واستطاعت أن تستقل عن الحبشة[١١٥] .

سلطنة بالى: جنوب سلطنة دارة ويحدها شمالا نهر ويبى ومن الجنوب نهر جرانا إلى دوريا، وبهذا الوضع الجغرافى تتحكم فى وداى الصومال ، والعنصر الغالب فى سكانها عنصر السيداما ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا ، وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك فيها لم يظل كغيرها ، محفوظا فى أسرة معينة ، بل حدث فى القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة[١١٦] . وفى بقية المظاهر، تقترب هذه السلطنة من السلطنات الإسلامية وتسير المعاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى[١١٧] .

---

(١١٤) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١ ؛ الإلمام ص ٧

(١١٥) Trim., p. 67

(١١٦) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٩ ، ٣٣٢

(١١٧) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ الإلمام ص ٨ ؛ Trim., pp. 67-68

سلطنة هدية: تقع غرب السلطنات الإسلامية وتجـاور أرابينى ، وتشغل مساحة واسعة بين نهرى حواش وجيبي وليست حدودها معروفة بدقة شأنها كشأن باقى الولايات الإسلامية وتتكون من ٨ مقاطعات[118]، ورغم أنها دون أوفات فى المساحة والإمكانيات إلا أنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلا ورجالا ، فيقال إن عدة جنود سلطانها بلغت نحواً من ٤٠ ألف فارس سوى الرجالة الذين يبلغون ضعف هذا العدد[119] تقريبا. ومع أن الطبقة الحاكمة فيهـا إسلامية ، إلا أن أغلب رعاياها على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيداما والجوارجى والشابو وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين[120] وتقترن شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون فى مصر باسم الطواشية ، وقد حظر ملك الحبشة هذه العملية الوحشية ، غير أن اللصوص مافتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبـة من هدية وسكان وشلو هذه همج متبربرون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى ، وهذا هام لتجار النخاسة ، إذ أن الخصى أرفع ثمنا من غيره ، وبعد إتمـام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا نظراً لأن مجرى البول يكون قد انسد بسبب القيح عند الخصى ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب ، ومع ذلك فإن العدد الذى يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذى تكتب له الحياة ليباع مصدراً من هدية[121] .

---

(١١٨) Beckingham and Huntingford, op. cit pp. LXIII-LXIV

(١١٩) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ — ٣٢٨

(١٢٠) Trim., pp. 66

(١٢١) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ — ٤٨٣ ؛ الإلمام ص ٧ — ٨ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ؛ أعلام الطراز المنقوش ورقة ٣ ؛ التعريف ص ٣٠

سلطنة دارة : تقع على حدود أوفات الغربية وشمالى شرقى هدية فى منطقة السيداما . وتعتبر أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلًا ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشاً يعدل فى قوته جيش أوفات إذا عنيت بهذه الناحية . ولا تختلف كثيراً عن غيرها من الإمارات الإسلامية ، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفى ومعاملتها بالمبادلة(١٢٢) .

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرابينى وشرخة ، فهى إمارات صغيرة، قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوفات فى الفارس والراجل وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجالة ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجالة(١٢٣) .

مشيخات الساحل : وبجوار هذه الإمارات ، نجد عددا من المراكز والمشيخات الإسلامية الساحلة للبحر الأحمر والمحيط الهندى منها : عوان المقابلة لتهامة(١٢٤) ومقدشو وبراوا وسيو وبيت ولامو ومالندى وكايفى وممبسا وزنزبار ومافيا وكلوة وموزمبيق وسوفالا آخرها وهذه كلها مطلة على المحيط الهندى. وكانت سوفالا زمن المسعوى المركز الذى تنتهى إليه السفن العمانية فى بحر الزنج. كذلك قامت مراكز استقرار عربية إسلامية على ممر الزمن فى جزائر كومورو. وعلى طول الساحل الغربى لمدغشقر نفسها نشأ مثل هذه المراكز(١٢٥).

---

(١٢٢) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٩ ؛ الإلمام ص ٨ ، Trim., p. 67

(١٢٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٦ – ٣٢٨ ؛ الإلمام ص ٧ – ٨ ؛ مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ – ٤٨٣

(١٢٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٦

(١٢٥) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال إلى الجنوب ، وآخرها سوفالا فى أقصى الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفى جنوب نهر زمبيزى
Coupland (R.): East Africa and Its Invaders pp. 22-25

فأما مقدشو ، فهذه يرجع تأسيسها إلى قرامطة البحرين حوالى عام ٩٢٠م ويسكنها عنصر الجالا وقد ظلت فترة من الزمن أقوى مدن الساحل[١٢٦] ، ويحكمها سلطان وراثى يرد نسبه إلى عرب القحطانية . زارها ابن بطوطة عام ١٣٣١م وسلطانها يومئذ أبو بكر بن الشيخ عمر من أصل صومالى يتكلم لغة مقدشية ـ اهلها صومالية ـ كما كان يعرف العربية ، ويلقب بالشيخ . وقاضيها المعاصر يومئذ ابن البرهان المصرى . وصفها ابن بطوطة بقوله : ـ « إن أهلها معروفون بالكرم وتشتهر بالثياب المنسوبة إليها ، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر فى زيادته فى الصيف »[١٢٧] وأما كلوه (Kilwa) فقد[١٢٨] أسست بعد مقدشو على يد فريق من المهاجرين الجدد من ساحل الخليج الفارسى . وتقع مدينة كلوة جنوب جزيرة مافيا ، وسلطانها عند زيارة ابن بطوطة هو أبو المظفر حسن[١٢٩] .

بهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى ومابعده ، على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج[١٣٠] .

والملاحظ على هذه المشيخات الساحلة للبحر ، أنها كانت مراكز توسع على نحو ما كانت عليه صور قديما ، أوسنغافورة أو هونج كونج حديثا ، فقد عملت على توسيع رقعة نفوذها برًّا وبحراً ، وكل مركز من هـذه المراكز قد أقيم بحيث يستطيع أن

(١٢٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عابدين والأستاذ النحراوى) ص٢٨٧؛ Trim., p. 62 ؛ Coupland, op. cit., pp. 22-23
(١٢٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ؛ الإلمام ص ٢٥ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٦
(١٢٨) انظر الخريطة .
(١٢٩) من أمراء كاوة : الحسن بن سليمان ، وسليمان بن الحسن ، وعلى بن الحسن . (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ـ ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن محمود والدكتورة سيدة الكاشف ـ ج ١ ص ١٣٨ ؛ الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ ؛ رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، Trm., p. 62)
(١٣٠) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨

بعد نفوذه ويحمى نفسه ، فكانت المدن مسوّرة محصّنة ؛ وبنيت منازل العرب بها من الحجر . ومنذ تحول الساحل كله إلى الإسلام فى القرن التاسع أو العاشر الميلادى ، صار لكل مدينة مساجدها الخاصة ، وزينت هذه المساجد أحيانا بالزخارف الفارسية الجميلة . واحتفظ المستعمرون فى هذه المدن بعاداتهم وتقاليدهم فى الحياة ، وأبرز ظاهرة ميزتهم ، ظاهرة النزاع الداخلى حول ولاية الحكم فى هذه المدن ؛ إذ كانت كل مدينة عبارة عن دويلة قائمة بذاتها (City-State) تشبه فى وضعها السياسى والإدارى المدن الإغريقية القديمة ، هذا وهناك النزاع والتخاصم بين المدينة والأخرى حول السيادة التجارية أو السياسية ، ولم توضح لنا التآريخ المحلية لهذه المراكز تفصيلات عن الأسر الحاكمة ، وإنما أفاضت فى النزاع بين المدن المختلفة وسيادة إحداها على الأخرى . أما اتحادها فيما يشبه أمبراطورية عربية ، فلم يتم شىء من هذا فى ذلك الوقت . فمثلا استطاعت ممبسا أن تتحكم فى جزء من الساحل خلال القرن الثانى عشر ، وكذلك سادت مشيخة بيت (Pate) فترة من الزمن وانتصرت مع ما جاورها من المشيخات الساحلية حوالى عام ١٣٣٥ م وبسطت نفوذها وسيادتها على طول الساحل من مدينة مالنـــدى Malindi حتى كلوة باستثناء زنزبار ؛ كما أن مقدشو Mogadishu وبمبا Pemba وزنزبار ، تحكم كل منها فى عدد من المدن الأخرى . غير أن أهم من هذا كله هو ما يتعلق بسيادة كلوة وبروزها فى ميدان القوة وسعة النفوذ ، فقد تمكنت مشيختها من بسط سيادتها على طول الساحل والجزائر المحيطة به بما فيها جزر كومورو ؛ وعند ما وصل البرتغاليون إلى إفريقيا الشرقية لأول مرة فى نهاية القرن الخامس عشر ، كانت كلوة لا تزال المشيخة الحاكمة فى تلك المنطقة ؛ وحينما وصل داجاما إلى موزمبيق ، كان بها ممثل لسلطان كلوة ، كذلك كانت سيادة كلوة مبسوطة على المنطقة الساحلية فى جنوب موزمبيق وبها من المدن أنجوش Angoche وكويليمين Quilimane وسوفالا Sofala . أما فى شمالى كلوة ، فلم يكن لها من النفوذ الفعلى أو التحكم السياسى كما هو الشأن فى جنوبها ، إلا أنه كان لها بعض النفوذ

والتأثير ، نظراً لارتباط الأسرتين الحاكمتين فى كل من كلوه وممبسا ، إذ كان سلطان ممبسا متزوجا من ابنة سلطان كلوه .

الخلاصة لم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك المشيخات الساحلية ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة فى بعض الفترات، تحققت عن طريق القوة أو الدبلوماسية أو المصاهرات ؛ ويمكن القول أن الذى غلب على علاقة هذه المشيخات بعضها ببعض هو التنافس والنزاع ، ولعل أقوى ما وقع من خصام ونزاع هو ما كان بين ممبسا ومالندى ، وظل هذا حتى قدوم البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى ، يلاحظ أن المجتمع الذى نشأ ونما حول المستعمرات العربية فى ساحل إفريقية الشرقى ، لم يكن عربيا بحتا، فقد ظل العرب كغيرهم من المستعمرين فى إفريقية وغيرها من القارات ، يكوّنون طبقة أرستقراطية ، ويعيش بجوارهم الهنود، لكنهم لا يشتركون معهم فى الحكم ، والمعروف أن صلة الهنود بذلك الساحل صلة قديمة كصلة العرب أنفسهم، ولهم نشاط ملحوظ فى الأعمال المالية والتجارية(١٣١) .

تكونت إذن عدة إمارات ومراكز إسلامية فى الوطن الحبشى ، وهى مستقلة داخليا وتدفع الجزية أحيانا لملك الحبشة ، وتحاربه أحيانا كثيرة ، وكانت الكنيسة القبطية فى مصر تكاف مبعوثيها فى بعض الأوقات ، بمراعاة مصالح المسلمين فى الحبشة، فمثلا تدخل بدر الجمال وزير المستنصر الفاطمى (٤٢٧ـ٤٨٧هـ ١٠٣٥ـ١٠٩٤م) فى تعيين أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس ، وذلك عام ٤٧٣هـ ـ١٠٨٠م)واشترط عليه رعاية جانب المسلمين والاهتمام ببناء المساجد والإكثار منها ، ولما نفذ الأسقف ما اتفق عليه مع بدر الجمالى ، ثار المسيحيون ضده بالحبشة ، فحاول تهدئة هذه الثورة بقوله : إن هذه المساجد لا لشىء سوى استعمال تجار العرب ، وإنها لا تضر فى شىء وإننى إذا رفضت البناء ربما أدى ذلك إلى اضطهاد الأقباط بمصر » ورغم هذا القول فقد أمر ملك الحبشة بسجنه كما أمر بهدم المساجد السبعة التى تم بناؤها كما أصدر

---

(١٣١) Coupland, op. cit., pp. 26-27

عدة قيود على نشاط التجار المسلمين ، مما كان من بين نتائجه قطع العلاقة بين مصر والحبشة[١٣٢] .

يتضح من هذا أن هناك عاملين قويين سيطرا على سياسة ملوك الحبشة هما : العامل السياسى والاقتصادى للحد من نشاط المسلمين التجارى والاستيلاء على بلادهم لتوسيع مملكتهم ، وثانيا العامل الدينى ، لكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينيا .

وليس هذا بغريب إذا علمنا أن الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون فى الحبشة تفوق فى مساحتها أرض مملكة الحبشة وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحوطها من الجنوب والشرق ، فضلا عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب ، وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجى ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع ، وهو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة . يقول جيبون (Gibbon) لقد رقدت أثيوبيا فى سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نسيهم .

غير أنه لما وليت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠م وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) ١٢٧٠–١٢٨٥[١٣٣] ، اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لتدعيم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين ذلك أن السليمانيين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة كما أن الموانى فى أيديهم

(١٣٢) Trim., pp. 62,65

(١٣٣) ذكر كولبو Coulbeaux أن سنوات حكم هذا الملك هى من ١٢٦٨ إلى ١٢٨٣ ، وذكر بدج Budge فى اسم الملك أنه ليس اسماً وإنما هو جملة أو عبارة قصيرة معناها : سوف يسود أو سوف يحكم ، وأن هذه الجملة كانت تقال له أو عنه بواسطة بعض رجال الدين ، ويحتمل أن رجل الدين تكلاهايمانوت هو الذى قالها ، إذ كان معروفاً بالنبوءات ، أما اسمه الذى عرف به عند تعميده فهو : تاسفا إياسوس Tasfa Iyasus ؛ ويقول البعض إن اسمه حنا .
(Budge , p, 258 ; Coulb., pp . 284-286 , Trim,, pp . 65,72; Encyclo, of Islam; Art : Hamites and East Africa)

مماجعل أثيوبيا وعلاقتها الخارجية تحت رحمة المسلمين فذبلت المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة ، ومنها مدينة أكسوم العاصمة التي فقدت أهميتها ، وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية نتج عنها قحط[١٣٤] .

اتخذ يكونو أملاك مدينة تجولات بمنطقة أمحره عاصمة له ، وأبقى على أكسوم لتكون عاصمة دينية حيث يتوج الملوك[١٣٥] . ولما كانت مملكة الحبشة من غير أسقف منذ نهاية الأسرة الزغوية ، فقد استهل هذا الملك حكمه بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس في مصر عام ١٢٧٤/١٢٧٥م ، وذلك عن طريق سلطان اليمن ، لكي يعمل بيبرس على تعيين أسقف للحبشة ، بشرط استيفاء هذا الأسقف لشروط النزاهة والتفرغ للشئون الروحية ، ولا يجعل همه منصبا على جمع المال . ومما جاء في رسالة يكونو أملاك إلى بيبرس قوله: « أقل المماليك يقبل الأرض وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه..فنحن ماجاءنا مطران مولانا السلطان ، ونحن عبيده فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما لايجبى ذهبا ولا فضة .. ثم تمضى الرسالة وتشير من طرف خفي إلى معنى التهديد ... وعندى في عسكرى مائة ألف فارس مسلمين وأما النصارى فكثير لايحصون والكل غلمانك وتحت أمرك...[١٣٦] وربما أراد الحطى أن يستحث بيبرس لإرسال المطران ، فأوضح له أن لديه عددا كبيرا من المسلمين تحت أمره يستطيع أن يوقع بهم إذا رفض طلبه ، ومن ناحية أخرى عبارات التزلف هذه لم تخف على المعاصرين والمؤرخين ، فيعلن القلقشندى بأنه إذا لم تكن لملك الحبشة حاجة إلى مطران يعينه بطريرك الإسكندرية ، لما أظهر هذه العبودية[١٣٧] .

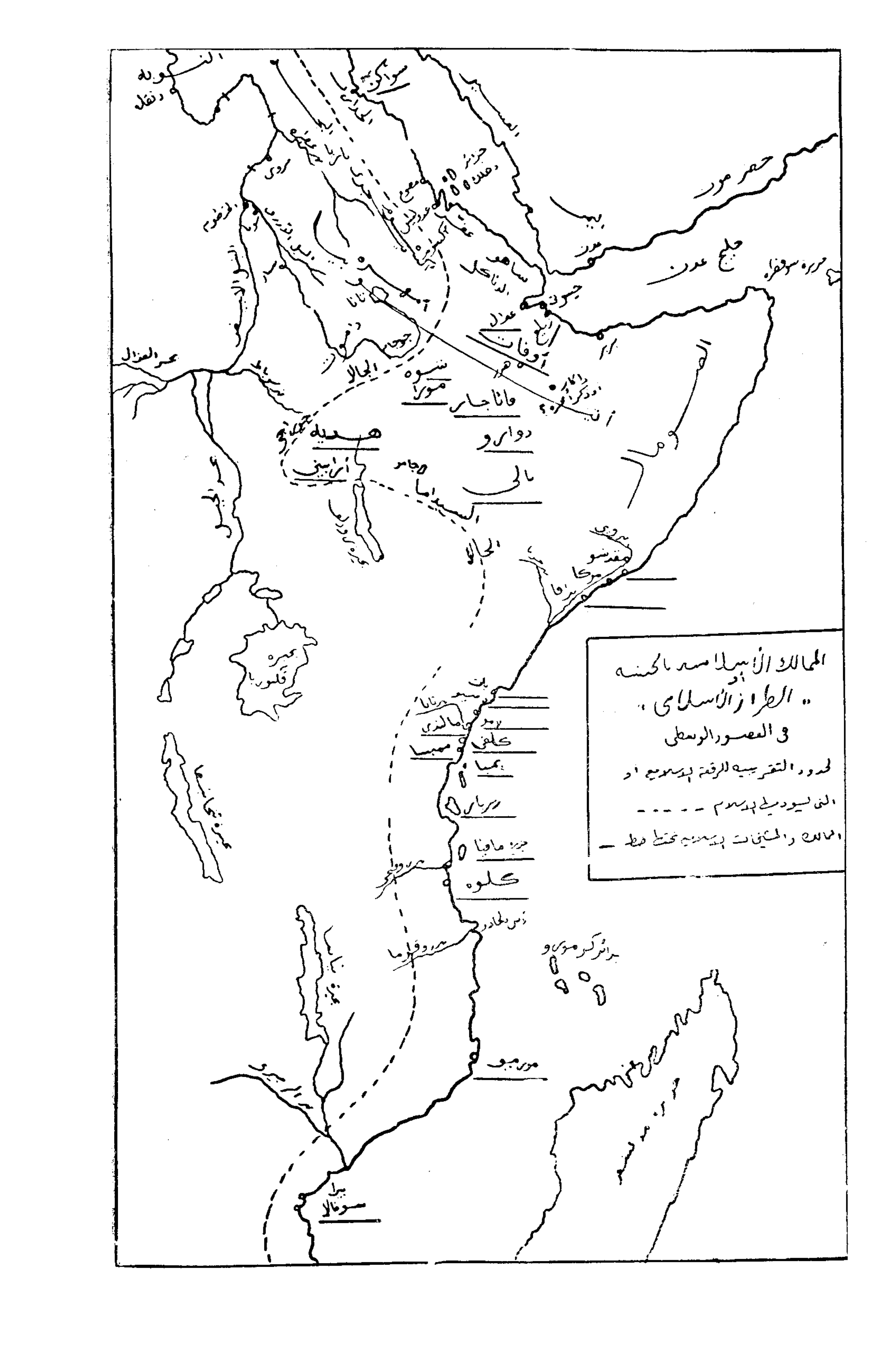
---

(١٣٤) بوصيلي ص ١٠–١١

(١٣٥) Trim., pp. 65,72; Coulb., pp. 285-7

(١٣٦) صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩–١٢٠ .

(١٣٧) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك – نشر وتحقيق الدكتور زيادة – ج ١ ص ٦١٥–٦١٦ وحاشية ١ ؛ صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩–١٢٠


الممالك الإسلامية بالحبشة أو
«الطراز الإسلامي»
في العصور الوسطى
الحدود التقريبية للرقعة الإسلامية أو
التي يسود فيها الإسلام - - - -
الممالك والمشيخات الإسلامية تحتها خط —
خليج عدن
حضرموت
عدن
جزيرة سوقطرة
الصومال
زيلع
عدل
أوفات
هرر
دوارو
بالي
هدية
مقديشو
مركا
براوة
ممباسا
كلوه
موزمبيق
سفالا
بحيرة فكتوريا
بحر الغزال
دنقلة
النوبة

جرت مفاوضات بهـذا الصدد ولـكن سلطان المماليك رفض تعيين أسقف ، محتجا بعدم وصول رسول خاص من قبل ملك الحبشة ، ولعل السبب الحقيقى راجع إلى أن بيبرس يعلم حق العلم كراهية هذا الملك الشديدة نحو مسلمى الحبشة فضلا عن اتخاذه تدابير قاسية ضدهم ، دليلها قيامه بتحصين الحدود المتاخمة لهم[١٣٨] ومما ورد فى إجابة بيبرس « . . . فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب . . . وأما ماذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر فى عساكر الإسلام ... »[١٣٩] ويدل الشطر الأخير من هذه الرسالة على كياسة السلطان المملوكى وأنه أجاب فعلا على ماتضمنه كتاب الحطى من تهديد[١٤٠] ولـكى يرد ملك الحبشة على صلة الممالك الإسـلامية الحبشية بالعالم الإسلامى الخارجى ، اتصل بالامبراطورية البيزنطية وذلك بإرسال هدايا من الزراف إلى الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٦١ ـ ١٢٨٢)[١٤١] .

* * *

ولما كانت مملـكة أوفات الإسلامية أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة ، فقد تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة وانضوى تحت لوائهـا بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، بل إن جميع ملوك هـذه الممالك ، متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه ،

(١٣٨) Trim., p. 69

(١٣٩) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٩

(١٤٠) رغم ما هو معروف عن الـكراهة المتبادلة بين ملوك الحبشة وسلاطين المماليك ، فإن ذلك لم يحل دون تبادل عبارات التمجيد والصداقة ونحو ذلك مما هو مألوف عادة فى العرف الدبلوماسى ، وذلك لأهداف سياسية غير خافية ، من ذلك أن مكاتبة سلاطين مصر إلى ملوك الحبشة ، كانت تصدر دائما بعبارة : « أطال الله بقاء الحطى ... (أو) أطال الله بقاء الحضرة العالية الملك الجليل الهمام الضرغام ، الأسد الغضنفر ... العادل فى مملـكته ، المنصف لرعيته ... عز الملة النصرانية ... ركن الأمة العيسوية ... حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين والربانيين والقديسيين ، معظم كنيسة صهيون ، أوحد ملوك اليعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين . . . » (صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٠ ـ ٤١ ؛ التعريف ص ٣١) .

(١٤١) Budge, p. 285

وذلك على حد قول القلقشندى[١٤٢]. ومن ثم أخذت هذه المملكة تركز قوتها وتستعد لمقابلة الأخطار التى تتهددها من جانب مملكة الحبشة .

برزت هذه الأخطار بشكل واضح على عهد خليفة يكونو أملاك وهو ابنه ياجبعاصيون (Yagbea Seyon) « ١٢٨٥ـ١٢٩٤ »[١٤٣] بدأ هذا النجاشى بشن حملة حربية ناجحة ضد إمارة عدال (Adal)[١٤٤] وهى تابعة لسلطنة أوفات . ويرجع سبب هذه الحملة المباشر إلى أن ياجبعاصيون كان قد أرسل مبعوثاً دينيا إلى القدس ، حيث يوجد دير حبشى ترعاه مملكة الحبشة ، وخلال مرور هذا المبعوث الحبشى ببلاد عدال الإسلامية ، حاول سلطانها تحويله إلى الإسلام ، فلما أبى أجبره على الختان ، ويقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة فى هذا الهجوم الظافر الذى انتهى بنهب عدال وعقد هدنة بين الطرفين ، أعيد بعد الهدنة فتح الحدود للتجار المسلمين لممارسة نشاطهم ، مما عمل من جانب آخر على إنعاش الحركة التجارية بالحبشة ذاتها[١٤٥] .

حاول ياجبعاصيون إعادة الكرة فى طلب أسقف مصرى ، فأرسل سفارة إلى السلطان قلاوون عام (٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م) أوضح فيها أنه لن يتخذ سياسة والده وقد نجحت السفارة وعين الأسقف[١٤٦] .

على أن مملكة الحبشة قد مرت بعد ذلك فى فترة اضطرب بسبب كثرة أبناء ياجبعاصيون وتنازعهم ، فضلا عن رغبة الملك نفسه قبيل وفاته فى أن يدعم الأمور

(١٤٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(١٤٣) يلاحظ كذلك فى اسم هذا الملك ، أنه ليس علما ولكن جملة معناها : سوف يبعث الله صهيون ؛ أما الاسم الذى عمد به فهو سليمان ـ Budge, p. 287

(١٤٤) مدينة عدال ثغر على رأس خليج تاجورا قرب جيبوتى الحالية (انظر الخريطة ؛ Encycl. of Islam, Art. «Adal»

(١٤٥) Trim. pp. 69-70

(١٤٦) عابدين ص ١٧٤ ؛ Trim., p. 69

بينهم بحيث يجعل لكل واحد منهم نصيبا فى الحكم ، ولذلك قرر أن يحكم أبناؤه الخمسة[١٤٧] على التوالى بحيث يتولى كل منهم الحكم لمدة سنة واحدة ويليه الآخر وهكذا على أن يتمتع كل منهم خلال السنة التى يحكم فيها بكل معانى السلطة الحقيقية حكم الأربعة الأول السنوات الأربع المقررة لهم بحسب النظام الذى أقره أبوهم ، غير أن الخامس لم يطق أن يصبر حتى ينتهى أجل حكم الرابع ليتولى بعده ، فدبر مؤامرة للقبض على الأخ الحاكم وإخوته الآخرين لينفرد بالحكم من بعدهم ، ولكن مؤامرته قد كشفت وانتهى الأمر بسجنه ومن والاه ، استغرقت هذه الفترة خمس سنوات من ١٢٩٤ إلى ١٢٩٩ م استطاع المسلمون خلالها تقوية أنفسهم وتدعيم سيطرتهم على الساحل الحبشى[١٤٨] كما أنه حدث خلال تلك الفترة أن قام أحد المسلمين ويسمى الشيخ محمد أبوعبدالله وأعلن أنه قدأوحى إليه بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها ، فقام عام ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩ م) وحشد حوله طائفة كبرى من عناصر الجالا والصومال وأعدهم للجهاد وغزا الحبشة فاضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود وذلك بمقتضى معاهدة نظير اعتراف المسلمين بسيادة ملك الحبشة العليا ويبدو أن هذه الحادثة إحدى حلقات النزاع بين مملكة أوفات الإسلامية أوغيرها من الإمارات وبين الحبشة[١٤٩] وازدادت قوة المسلمين على عهد الملك ودم أرعد (Wedem Arad) (١٢٩٩ ـ ١٣١٤م) الحبشى الذى لم يستطع أن يدفع هجماتهم أو يتخذ أى إجراء لمدافعتهم فقد وجد أن جميع الساحل الحبشى فى قبضة العرب وهو عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من إمارات ومراكز إسلامية ، يحكمها خليط من العرب والزنوج مع وجود بعض الوثنيين . وحين تحققت سلطنة أوفات أو عدل من

(١٤٧) هؤلاء الأبناء الخمسة هم : صنفا أرعد Senfa Ared ؛ حزبه أسجد Hezba, Asgad ؛ قدمه أسجد Kedma' Asgad ؛ جين أسجد Djin' Asgad سابا أسجد Saba' Asgad (Budge, p. 287)

(١٤٨) Budge, p. 287

(١٤٩) الشاطر بوصيلى ص ١٢ ؛ Trim., p. 70

ضعف الملوك السليمانيين وعجزهم عن ملء مراكزهم رأت أن الوقت قد حان للقيام بحركة جدية لإعـــلان استقلالها وانفصالها عن السيادة الاسمية التى يفرضها ملوك الحبشة ووجدت هذه السلطنة تشجيعاً من جميع المسلمين ولاسيما من المهتمين بشئون التجارة البحرية الذين يهدفون إلى وضع أيديهم على موطن العاج والجلود والفيــلة والصمغ والبهار والذهب ، فهم يعتقدون أن هذه السلع توجد بكميات لاتقدر فى هضبة الحبشة ومن ثم بدأت هجمات المسلمين ضد الأحباش وقد استمرت هذه الهجمات نحو ثلاثة قرون بعد ذلك مما أدت فى نهاية الأمر إلى تدمير مملـكة الحبشة تقريباً . والمعروف عن ودم أرعد وهو ابن يكونو أملاك أنه بعث برسالة إلى البابا كليمنت الخامس فى أفنيون بفرنسا ، ولـكن ليس من المعروف هدف هذه الرسالة هل كانت لغرض روحى بحت أو لطلب المساعدة المادية ضد المسلمين(١٥٠) .

وإذا كانت مملـكة الحبشة قد انحطت على عهد الملوك السليمانيين الأول فإنها لم تلبث أن قويت وازدهرت خلال حكم عمداصيون الأول (Amda Soyon I) (١٣١٣ / ١٣١٤ – ١٣٤٣ / ١٣٤٤) ويلقب بجبرامسقل (Gabra Maskal) أى عبدالصليب أو خادم الصليب وهو الاسم الملـكى له لـكنه كان يدعى دائماً عمداصيون بمعنى عموداً أودعامة صهيون(١٥١) وهو ابن ودم أرعد ؛ ونظراً لما أحرزته مملـكة الحبشة من قوة وازدهار على يديه ، فقد اعتبر فى نظر المؤرخين المؤسس الحقيقى للدولة الحبشية(١٥٢) .

(١٥٠) الشاطر بوصيلى ص ١٣ ؛ Budge, pp. 287-8

(١٥١) يقول القلقشندى نقلا عن العمرى إن اسمه عمد سيون ، وكان هذا الملك يعاصر العمرى ومعنى اسمه كما يشرح صاحب صبح الأعشى : ركن صهيون ، وصيون هذه بيعة قديمة بالإسكندرية معظمة عندهم . صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ Budge, p. 288

(١٥٢) يذكر عن عمد صهيون أنه ارتـكب جريمة الزنا مع محظيات أبيه ، وحتى مع أخته ، مما أدى إلى تحمس الأب هو نوريوس وحرمانه من الـكنيسة ، فـكانت النتيجة أن انقلب الملك ضد رجال الدين ، فشتت الرهبان ، وعذب هذا الأب فى شوارع المدينة ، حتى سالت دماؤه على الأرض ، ولما اشتعلت النيران بالمدينة ، فى أمسية ذلك اليوم ، اعتقد الملك أن رجال الدين هم الذين دبروا الحريق فازداد فى اضطهادهم وتشتيتهم حتى هرب الـكثير منهم إلى أماكن نائية ... (Budge, pp. 288-9)

لا يهمنا صدر حكمه الذى قضاه فى اللهو والفجور وما أدى إليه من انقسام تام ، بينه وبين الكنيسة ورجال الدين فى دولته وإنما الذى يعنينا فقط هو علاقته مع المسلمين فى الوطن الحبشى وصدى هذا فى العلاقة مع مصر .

كان يعاصره فى مصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمعروف أنه تسلم احتجاجاً شديد اللهجة من عمد صهيون فى عام ١٣٢٥ م ينعى على السلطان الناصر اضطهاده للأقباط فى مصر ويهدد باتخاذ إجراءات مماثلة ضد العرب المسلمين فى الحبشة وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء ليجيع مصر ، غير أن الناصر لم يعبأ بهذا الاحتجاج وطرد السفارة الحبشية(١٥٣) .

بدأت أعمال عمد صهيون الحربية ضد الإمارات الإسلامية بالحبشة على أثر السياسة التى أنتهجتها سلطنة أوفات الإسلامية للاستقلال عن الحبشة بل والتوسع فى أملاكها للاستيلاء على مواطن العاج والمنتجات الإفريقية ، فقد تقدم السلطان حق الدين وتوغل فى أملاك الحبشة فغزا الولايات المسيحية وأحرق كنائسها وأجبر المسيحيين على الدخول فى الإسلام ، كما قبض على سفير حبشى عائد من القاهرة ، ولما فشل فى إقناعه لاعتناق الإسلام ذبحه ، فأثار بذلك ثأرة عمداصيون ومن ثم خرج ملك الحبشة عام ١٣٢٨ م وهجم على مملكة أوفات من جميع جوانبها حتى فرق شمل الدفاع الإسلامى وأسر حق الدين ووضع يده على مملكته وكذلك مملكة فاتاجار الإسلامية وجعلهما ولاية واحدة وعين عليها صبر الدين وهو أخو حق الدين بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة(١٥٤) .

غير أن صبر الدين لم يطق صبراً على هذه التبعية ، وكون حلفا إسلاميا من إمارتى هدية ودوارو ، كما استعان باليهود من عنصر الأجاو فى مناطق : وجرا ودمبيا وبجاندر وعهد إلى أولئك اليهود بالقيام بمناورات ضد الحبشة بينما يقوم المسلمون بهجومهم

(١٥٣) Budge, pp. 70-71 ; Trim., pp. 70-17

(١٥٤) Trim., p. 71

الـكاسح[١٥٥] تقدم صبر الدين وغزا الحبشة واستولى على كثير من الغنائم كما قتل الـكثير ، وبدا فى نظر نفســه أنه كملك الحبشة حتى أخذ يعين الولاة والحـكام على المناطق والمدن بل على أما كن لم يرها وأخذ يتهدد عمداصيون معلنا أنه سوف يذبح عبدالصليب، وأنه سوف يستخدم مانجاشا زوجته فى طحن الحبوب وصنع الخبزله[١٥٦] ولما سمع عمداصيون بهذه التهديدات خرج على رأس جيشه وهاجم الأحلاف منفردين مبتدئاً بمملـكة هدية وحطمها قتلا وأسراً ونهباً وأخرجها من الحلف وحمل ملـكها أسيراً مع رعاياه إلى عاصمته ، ثم أرسل فرقة عنيفة من جيشه ، هى أقرب ماتـكون إلى الفرق الانتحارية أو الفدائية ، وتسمى فرقة الذئاب ، وصلت هذه الفرقة إلى قصر صبرالدين ونهبته ، وكانت مقدمة لجيشه الذى تبعها ودمر المدينة ونهب معسكر المسلمين. تقدم عمداصيون إلى فاتاجار واستولى عليها وكذلك مملـكة دوارو وملـكها حيدرة ، ولما علم صبر الدين بهزيمة جيشه ، يقال إنه كتب رسالة إلى ملـكة الحبشة ينبئها فيها أنه سوف يحضر بنفسه ويعلن خضوعه للنجاشي ولـما حضر انتهى الرأى فيه بالقتل بناء على رغبة الجيش الذى أوعز للملك بأنه ماجاء خاضعاً إلا لأنه آمن على نفسه بسبب الطلاسم والتعاويذ التى يحيط نفسه بها فيقال إن هـــذه التمائم والتعاويذ والأحجبة قد وجدت حول ذراعيه وفى وسطه[١٥٧] .

ومعنى هذا انتهاء استقلال وسيادة الممالك الإسلامية فى أوفات وهدية وفاتاجار ودوارو ، وجعل من الثلاث الأول مملـكة واحدة ، أسند الحـكم فيها إلى جلال الدين أخى صبر الدين إذ قبل أن يكون تابعاً لملك الحبشة وأن يدفع له الجزية فاتسعت مملـكة الحبشة وأضيفت إليها ولايات جديدة ، وضعف أمر المسلمين ولاسيما بين عنصر السيداما الحديث عهد بالإسلام[١٥٨] .

---

(١٥٥) Ibid 1

(١٥٦) Budge, p. 290

(١٥٧) Budge, pp. 290-1

(١٥٨) Trim., pp. 71-2

اجتمعت كلمة المسلمين فى الفترة مابين عامى ١٣٣٢ ، ١٣٣٨ م على إرسال سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد برئاسة عبد الله الزيلعى ، ليتدخل السلطان فى الأمر لحماية مصالح المسلمين فى الحبشة فطلب الناصر محمد من البطريق ، بالاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة فى هذا الصدد[١٥٩] .

يقول القلقشندى ، « وقد كان الفقيه عبـد الله الزيلعى قد سعى إلى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمحرا إلى مصر فى تنجز كتاب البطريرك إليه بكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن نفسه كتاباً شافياً بليغافيه معنى الإنكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله ، بعبارات أجاد فيها[١٦٠] . غير أن عمداصيون لم يكف عن مهاجمة المسلمين بالحبشة ، وهؤلاء لم يكفوا عن انتهاز الفرص للثأر منه ، من ذلك أن سكان أوفات انقضوا على الحامية الحبشية وأبادوها عن آخرها ، كما ثارت إمارة عدل ومورا فداهمهما عمداصيون بالذبح والنهب . حدث بعد ذلك أن كلّ رجال النجاشى من هذا الكفاح المتواصل واستأذنوه فى العودة إلى بلادهم محتجين بأن موسم الأمطار قد حل بهم ، أبى عليهم ماطلبوا بحجة أن المسلمين مافتئوا يهددونه وأمرهم ألا يفاتحوه فى مثل هذا الأمر مرة أخرى . وحينئذ تكون حلف إسلامى قوى جمع شتات المسلمين تقريبا بالحبشة ، التأم هذا الحلف من : عدل ومورا وطيقو وباجوما ولبا كالا وراجا وحبلة . وجعل خطته القضاء على الحبشة وملكها وبدا بعمليات الكر والفر فى جنح الظلام ، والملك لا يفتأ يطاردهم ويعود إلى معسكره لكنه عند ما عسكر فى مورا الإسلامية تقدمت إليه امرأة مسيحية وأفضت إليه بخطة المسلمين ضده وتلخص هذه الخطة فى انتهاز فرصة هبوب العواصف العاتية التى تجتاح هذه المنطقة — وهى عواصف الهبوب — وفى حالة اضطراب المعسكر الحبشى ينقض المسلمون عليه ،

---

(١٥٩) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧

(١٦٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

وقد نفذ المسلمون هذه الخطة التى استعد لها ملك الحبشة وتعقب المسلمين حتى حدود مملكة عدل، ولما اشتد الضيق بالمسلمين، استعان امبراموروا وعدل باحد أشراف مكة وهو الشيخ صالح أو الإمام صالح وله نفوذ روحى كبير فى منطة هرر ، كما اجتمع رجال الدين المسلمون مع أمرائهم على جهاد الحبشة، ويقال بأن عدد أمراء المسلمين وحدهم بلغ نحو ٢٧٢٢ أميراً وبلغ عدد جيوشهم نحو ١٢٠٠٤٨ جنديا . وفى ذلك الوقت ثار جمال الدين واتصل بأمير عدل ، ووحد جهوده معه . وتذكر المراجع أن ملك الحبشة حين علم بهذه الجموع الزاخرة ، كان يعانى مرضاً نفسيا ، ومعظم فرقه القوية بعيدة عنه ، مثل فرقة «الذئاب» وفرقة «عيون الأبر» ـ لعلها فرقة الجواسيس وأن زوجتيه كانتا بجانبه تتضرعان له بالإقلاع عن الحرب وهو يجيبهما : «هل أموت كما تموت المرأة ؟ إنى أعلم كيف أموت فى ساحة الوغى ؟ » وصلى إلى الله وصلى له رجال دينه ، والجميع يتضرعون طالبين النصر ، وعمدوه بماء مقدس فدبت فى نفسه الشجاعة والقوة .

وبينما هذا يجرى فى معسكر عمداصيون كانت جحافل المسلمين تتقدم ، وهى تسد الفضاء لكثرتها ، وتصورها المراجع تصويراً شعريا ، بأن الوحوش كانت تفر أمامها لاجئة إلى معسكر ملك الحبشة وخرج عمداصيون فى حفنة قليلة من رجاله وقاتل بشجاعة حتى عاد إليه بقية رجاله الذين هربوا من هول المنظر ودامت المعركة ست ساعات انتهت بانتصاره وقتل الشريف صالح وتفرقت جموع المهاجمين ، وتبع ذلك بالتقدم فى الأراضى الإسلامية ناهبا جميع المدن التى مر بها مثل تاراك ودابى وزاسى التى قتل حاكمها عبدالله، إلى أن وصل إلى مدينة عدل حيث قبض على سلطانها وذبحه مع جميع رجاله فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهرين خضوعهم ، وأرسلوا عدة رسائل إلى ملوك وحكام المسلمين الذين كانوا فى حلف مع أبيه، وطلبوا إليهم الكف عن القتال وأن الأولى بهم الحضور لتقديم فروض الطاعة للنجاشى غير أنهم رفضوا ، فاستأنف النجاشى تخريبه وتدميره وقتاله فى بلاد المسلمين ، حيث دافعت النساء مع

الرجال وأمر بتدمير المساجد وحرق المدن الإسلامية ونهبها واستباحتها ، وعند وصوله إلى مدينة بيكولزر الإسلامية هدد حاكمها وتوعده إن لم يسلم إليه من ترك المسيحية ودخل فى الإسلام . فلما حضر هؤلاء إليه وكان من بينهم القسيس والشماس والجندى ، عذبهم الحطى ، وأعقب هذا بالقبض على حاكم المدينة المسلم ، وتابع تخريبه ومذابحه ، وتبودلت المذابح القاسية بين الطرفين وانتصر عمدا صيون ، لكن ليس معنى انتصاره أن الحرب قد وقفت رحاها أو أن المسلمين استكانوا لما أصابهم ، بل تجددت أكثر من مرة واستمرت سجالا . ونظراً لما اقترن به كفاح النجاشى من ظفر ، علا صيته ، وأضحى يحكم عدداً من الإمارات الإسلامية ، عليها حكام وراثيون يوليهم بأمره. ويشبه عمدا صيون فى رأى بعض الكتاب ، ما كان يقوم به الفراعنة فى حروبهم، ورمسيس الثانى بصفة خاصة، حين قاتل أولا بحفنة قليلة من رجاله أمام قادش ، كما يشبه ملوك النوبة فى نباتا ومروى(١٦١) .

وفى عهد خليفته وابنه سيف أرعد الملقب بسفينة المسيح أو دعاء المسيح (١٣٤٣/١٣٤٤_١٣٧٢/١٣٧٣ م)(١٦٢) حدث أن قبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين بالحبشة وأعدم بعضهم وأرغم البعض على اعتناق المسيحية وأرسل فرقة من رجاله لاعتراض طريق القوافل بين القاهرة والحبشة ، فأضر بالتجارة بين مصر والحبشة ، برا وبحرا ، وكان هذا رد فعل لما قام به الأمير شيخو خلال سلطنة الناصر حسن (المتوفى عام ١٣٦١ م) نحو بطريق الاسكندرية مرقص إذ سجنه عام ١٣٥٢ م بسبب امتناع البطريق عن دفع الضرائب التى طلبها الأمير ، تدخل السلطان حسن بنفسه وأطلق سراح البطريق وطاب إليه التوسط لدى ملك الحبشة لإعادة طرق التجارة كما كانت ، فأرسل البطريق بعثة من الأساقفة إلى سيف أرعد الذى استبق الأساقفة عنده(١٦٣) .

---

(١٦١) Budge, pp. 291-8; Trim., p. 72 ; Kammerer, pp. 353-4

(١٦٢) يلقب سيف أرعد بعبارة Newaya Krestos ومعناها « تابع المسيح » (Budge, p. 298)

(١٦٣) Trim., pp. 73,4 ; Budge p. 299

وكانت سلطنة أوفات قد انتابها بعض الفتن الداخلية ، بسبب النزاع بين أعضاء الأسرة الحاكمة وانتهى هذا النزاع بانفراد حق الدين الثاني وإعلان استقلاله عن الحبشة ، وحارب سيف أرعد[١٦٤] وهزم جيوشه التي أرسلها ليساعد بها منافساً له على العرش[١٦٥] ، وظل على خطة الجهاد ضد الحبشة على عهد خليفتي سيف أرعد وهما ولداه: ودم الملقب بتابع مريم[١٦٦] (١٣٧٢–١٣٨٢م) وكذلك داود الأول (١٣٨٢–١٤١١ م) . ويذكر المقريزى أنه وقع بين حق الدين وداود الأول هذا بضع وعشرون وقعة في مدة ٩ سنوات آخرها أنه سار إلى الحبشة وهاجمها عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) واستشهد في أرض شوه وضاعت جثته بين القتلى[١٦٧] .

على أن أخاه سعد الدين وكنيته أبو البركات تولى زعامة حركة الجهاد من بعده. وكان ذلك على عهد داود الأول الذى اتسمت الحرب خلال حكمه بطابع العنف والاستماتة من الجانبين ودحر سعد الدين الجيوش التي أرسلها ملك الحبشة تباعا بقيادة أمن مرقى وزلن حسق وأسر وغنم ، ومن مغانمه من منطقة زلان ، مابلغ سهمه شخصيا نحو ٤٠ ألف بقرة ، وزعها بين الفقراء والمساكين وكذلك العسكر حتى لم يجد مايأكله ، وحصل لسليم بن عبان زوج ابنته ١٢ ألف بقرة ، فأمره أن يخرج زكاتها. يذكر المقريزى أن سليما لم يمتثل لأمر السلطان في تزكية سهمه من الغنيمة ، فسلط الله عليه الكفرة فأخذوه ومامعه ولم يفلت منهم سوى زوجته ابنة سعد الدين بحيله[١٦٨] . استولى سعد الدين بعد ذلك على زمدوه وبالى وتوغل في أرض أمحره ، وهي مملكة النجاشي وكان قد بدأ المعركة بالوضوء والصلاة مع رجاله ، وتكلل جهاده بالنصر ، ومن قواده البارزين أسد الذى دحر زلن حسق قائد ملك الحبشة[١٦٩] . . .

(١٦٤) الإلمام ص ١١
(١٦٥) Budge, p. 299
(١٦٦) يلقب ودم أرعد بعبارة Newaya Maryam أى تابع مريم (Budge, p. 299).
(١٦٧) الإلمام ص ١٢
(١٦٨) الإلمام ص ١٢–١٣
(١٦٩) الإلمام ص ١٢–١٣ ؛ Trim., pp. 73-4 : Budge, p. 300

استمر النضال وخسر المسلمون أميراً منهم هو الأمير محمد الذى استشهد فى القتال ومن معه ولم ينج سوى فارس واحد. وأرسل النجاشى داود على قائده باروا ، فتصدى له سعد الدين بنفسه وجمع معه الفقهاء والفقراء والفلاحين وجميع من قدر على حمل السلاح تحالفوا على الموت فى سبيل النصر ، ووقعت الواقعة ، وقتل أكثر المسلمين، وبلغ عدد القتلى من المشايخ الصلحاء ٤٠٠ شيخ ، فاضطر سعد الدين إلى الالتجاء إلى جزيرة زيلع حيث حوصر وقطع الماء عنه ، إلى أن دل أحد الخائنين العدو على صبر الدين الذى قاتل فترة من الزمن حتى خر صريعاً ، وذلك عام ٨٠٥ ﻫ (١٤٠٢ م) .

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع نهاية سلطنة أوفات فلم نعد نسمع شيئا عن هذه السلطنة إذ ضعف أمر المسلمين وأمعن الأحباش فى تخريب بلادهم وهدم المساجد وبناء الكنائس وظلوا على ذلك نحو ٢٠ عاماً يقتلون ويأسرون ويسبون ما لا حصر له من أهلها [١٧٠] .

تفرق أولاد سعد الدين وهم عشرة ، كان أكبرهم صبر الدين الثانى ، وهاجروا إلى بلاد العرب ، حيث نزلوا فى جوار ملك اليمن الملك الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل فأجارهم وجهزهم لاستئناف الجهاد والنضال ضد الحبشة ، فعاد هؤلاء إلى إفريقية واستقروا فى موضع يقال له سيارة حيث انضم إليهم من بقى من جنود أبيهم الذين كانوا متفرقين فقوى أمرهم واستأنفوا الكفاح . والملاحظ أن أسرة ولشمع هذه لم تعد تعرف بهذا الاسم وإنما أخذت لنفسها تسمية جديدة هى « ملوك عدل » واختاروا لعاصمتهم الجديدة مدينة داكار أو ذكرا محره لبعدها عن تهديد الحبشة ، وتقع جنوب شرقى هرر وأضحت مملكة أوفات تعرف منذ ذلك الوقت باسم بر سعد الدين أى أرض سعد الدين ، وذلك فى ذكريات الحروب المقدسة[١٧١] .

---

(١٧٠) المصادر السابقة

(١٧١) الإلمام ص ١٤ ؛ Encyc. of Islam, Art. «Adal» ; Trim., p. 74

أما علاقة الحبشة بمصر فى تلك الفترة فكانت ودية بدليل الهدايا التى أرسلها النجاشى داود الأول إلى السلطان برقوق بن أنص العثمانى فى عام ١٢٨٧م[١٧٢] وخلف داود ولداه : ثيودور الأول الملقب بابن الأسد ، لكن هذا لم يطل حكمه ، والثانى يسحاق الملقب بعبد الصليب (١٤١٤–١٤٢٩ م) وخلال حكمه فتحت صفحة جديدة من صفحات الكفاح بين المسلمين والأحباش فاستعد يسحاق بتدريب جيشه واستعان ببعض المماليك الجراكسة ممن كان يشغل وظيفة الزردكاش بمصر وقدم على يسحاق وعمل له زردخانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح من السيوف والرماح والزرديات وغيرها وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها ، — وذلك على حد قول المقريزى[١٧٣] . وفضلا عن ذلك ، فقد وفد مملوك آخر هو الطنبغا مفرق الذى نفى من مصر ، وعلم جيش النجاشى يسحاق كيفية استعمال النار الإغريقية[١٧٤] وكيفية الرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف فعرفت الحبشة وسائل الحرب الحديثة وقتئذ وذلك على حين كان بمملكة الحبشة قبطى مصرى يعرف باسم فخر الدولة ، جاء إلى الحبشة ورتب له المملكة — وجبى الأموال فصار ملكا له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا لا ديوان لها ولا ترتيب ، ولا قانون ، فانضبطت عنده الأمور وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة بعد ما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا وقد عصب رأسه بعصابة خضراء ، فصار يسحاق يمر فى موكب جليل بشارة الملك[١٧٥].

وجاء استئناف النضال على أثر الانتصارات الساحقة التى أحرزها صبر الدين الثانى ، إذ أمعن فى بلاد العدو واستولى على عدة بلاد منها : سرجان . وبينما كان

(١٧٢) Trim., p. 75 ; Budge, p. 301

(١٧٣) الإلمام ص ٤

(١٧٤) الطنبغا مفرق من أمراء دولة الجراكسة، ترقى حتى وصل إلى امرة بعض بلاد الصعيد وقد فر إلى الحطى ، وكان نابغة فى أعمال الفروسية (الألمام ص ٤)

(١٧٥) الإلمام ص ٤–٥

صبر الدين يحرق الكنائس فى بلاد عدوه ويغنم ، كان يسحاق يفعل مثل ذلك فى رعاياه المسلمين وجرد صبر الدين أكثر من جيش مرة بقيادة أخيه محمد ومرة بقيادة أمير يسمى عمرو ، وتبودل القتل والأسر والتخريب من الجانبين وحرق صبر الدين قصر النجاشى وحاول السلطان برسباى يومئذ (ـ٨٤٢ هـ=١٤٣٨ م) أن ينتقم من الأقباط فى مصر ، غير أنه امتنع عن ذلك[١٧٦] .

وبعد وفاة صبر الدين الثانى عام ٨٢٥ هـ (١٤٢١ـ١٤٢٢ م) خلفه أخوه منصور (ت ٨٢٩ هـ = ١٤٢٥ م) وأهم ما يذكر عنه بصدد جهاده أنه هاجم جدايا الحبشة حيث وقع فى قبضته نحو ٣٠ ألف أسير نخيرهم بين الإسلام أو العودة إلى قومهم فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباق[١٧٧] ، كما أن عهد جمال الدين أخى منصور بارز من حيث إن حرب جيوش أحد قواد النجاشى قد أسلم وصارمن أكابر قواد جمال الدين ، ويرجع الفضل إلى هذا القائد فى قمع فتنة قام بها بعض رعايا جمال الدين ، كما انتصر على بالى والتقت جموع المسلمين مع جيش يسحاق الذى هزم ، ووزع جمال الدين أسراه على رعيته حتى خص كل فقير ثلاثة رءوس من الرقيق ، ولكثرتهم كان الرقيق الواحد يباع بربطة ورق وخاتم[١٧٨] .

وخلال تلك الوقائع قتل يسحاق نجاشى الحبشة عام (١٤٣٠ م) واضطربت أحوال مملكته لكثرة ماوليها من ملوك بعده حكموا مايقرب من خمس سنوات وبسبب الطاعون الذى استمر نحو سنة (١٤٣٣ـ١٤٣٤ م)[١٧٩] .

---

(١٧٦) الإلمام ص ١٤ـ١٥

(١٧٧) الإلمام ص ١٥

(١٧٨) الإلمام ص ١٦ـ١٧

(١٧٩) بعد مقتل يسحاق ، تولى ابنه أندراوس . وحكم نحو ستة شهور أوسبعة خلال عام ١٤٣٠ م ، ثم خلفه حزبانان الملقب بـ « نبات مريم » وهو ابن داود الأول ، حكم نحو ثلاث سنوات، ومن بعده محركانان الملقب بـ « دعامة عيسى » ، وحكم هذا نحوا من ثمانيه شهور ، ثم بادل نان الذى لم تزد مدة حكمه عن حكم سالفه ، وتوفى عام ١٤٣٤ م (Budge, p. 303 الإلمام ص١٩ انظر جدول ملوك الأسرة السليمانية فى: Kammerer, op. cit. pp. 366-7)

وكما أصاب العرش الحبشي ذلك الاضطراب ، أصاب مملكة عدال اضطراب من نوع آخر ، وهو تلك الفتنة التي وقعت بين أعضاء الأسرة الحاكمة . مبعثها الحقد الذي ملأ قلوب بني عمومة جمال الدين فكادوا له حتى قتلوه عام ٨٣٥هـ (١٤٣١ م) ، وذلك لبعد الصيت الذي بلغه في جهاده وحسن سيرته في الرعية ، فضلا عن كثرة الداخلين في الإسلام خلال عهده ، ومما يذكر عن عدله ، ما أوضحه المقريزي من أن أحد أبناء جمال الدين كان يلهو مع أترابه فكسر يد أحدهم ، وأخفى الخدم عنه هذا الخبر ، كما أخفاه عنه أولياء الصغير ، فما زال بهم حتى عرفه فعاقبهم وجمع وجوه دولته وطلب ابنه الجاني ليقتص منه ، ورغم تضرع من حضر ، إلا أنه أبى إلا القصاص وكسر يد ابنه بحجر وقال لولده . « ذق كما أذقت ولد الناس »[١٨٠] فكان درسا في العداله والنصفة . وولي عرش الإمارة من بعده أخوه شهاب الدين أحمد بدلاي الذي ظفر بقاتل أخيه وقتله ، ومن ثم تابع سنة سلفه في الجهاد والفتوح[١٨١] ..

وإذا كانت مملكة عدال الإسلامية قد استأنفت نشاطها ، فإن مملكة الحبشة قد استتب الأمر فيها كذلك واستأنفت نشاطها ، عند ما ولي عرشها زرء يعقوب (Zara yakob) ١٤٣٤–١٤٦٨م الذي أخذ اسم قنسطنطين الأول . عمل زرء يعقوب على ضم الفتوح التي غنمها في بلاد المسلمين بالحبشة وتوحيدها ، وقد بلغت الأسرة السليمانية ذروة مجدها على عهده ، إذ أكثر من بناء الكنائس ومنح الهبات إلى الأديرة ، وعمل على النهضة ببلاده ، ولما وجد خطر الإمارات الإسلامية بزعامة مملكة عدال ، ماثلا غير منقطع ، عول على وضع حد له ، ولاسيما وأن السلطان شهاب الدين أحمد بدلاي قد استولى على عدة بلاد واسترد بالي ورد إليها ألف بيت من المسلمين ، فضلا عما غنمه ودمره من الكنائس[١٨٢] ، حينئذ فكر زرء يعقوب في الاتصال

(١٨٠) الإلمام ص ١٨–١٩
(١٨١) الإلمام ص ١٩
(١٨٢) المصدر السابق ص ١٩–٢٠

بالعالم المسيحى الخارجى وذلك ليناهض اتصال الإمارات الإسلامية فى الحبشة بالعالم الإسلامى الخارجى والمعروف أن يسحاق قد حاول هذه الخطوة قبله ، حين كتب إلى ملوك الفرنجة يحثهم على معاونته لإزالة دولة الإسلام[١٨٣] .

وكان هناك تاجر فارسى يسمى الحاج نور الدين على يعمل واسطة بين يسحاق وبين ملوك الفرنجة خلال حملات المماليك على قبرص عام ١٤٢٥/١٤٢٦م ٨٢٩هـ ، كذلك كتب إلى الفونسو الخامس ملك أرغونة ١٤١٦ــ١٤٥٨م يقترح عليه التحالف ضد المسلمين الذين ينتسب إليهم مسلمو عدال المهددين لمملكته[١٨٤] ... أجاب الفونسو مقترحا المصاهرة بين الأسرتين لتدعيم أواصر التحالف والصداقة ، ويستدل على وجود هذا التحالف من ذلك الخطاب الذى أرسله الفونسو إلى زرء يعقوب عام ١٤٥٠م يشير فيه إلى العلاقات السابقة[١٨٥] . أما هذا النجاشى فقد حملته الرغبة فى القضاء على الخطر الإسلامى الذى يهدده فى الحبشة إلى العمل على الاتفاق والارتباط بروما ، نظرا لاضطراد قوة المسلمين ورأى ربط كنيسة الحبشة بروما فى نظير مساعدة البابا روحيا ، ومساعدة بعض الدول الأوربية الكاثوليكية ماديا ، وقد وافق بطريق الإسكندرية على وجهة نظره ، ومن ثم قامت سفارتان من مصر إلى روما عام ١٤٤٠م إحداها برئاسة الارشمندريت ــ وظيفة كهنوتية ــ أندرو من دير القديس أنطون والأخرى برئاسة بطرس الشماس . وفى نفس الوقت أرسل زرء يعقوب راهبين من الدير الحبشى بالقدس لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣١ــ ١٤٤٥م المعقود برئاسة البابا ايوجين الرابع (Eugene VI) . ويقال إن زرء يعقوب أصدر قرارا بربط كنيسة الحبشية بكنيسة روما وإنه لهذا السبب سمح له البابا بإقامة دير حبشى فى روما[١٨٦] ومع أن الدلائل ليست كافية على وجود اتصالات قديمة بين البابا الإسكندر الثالث عام ١١٧٧م وبين نجاشى الحبشة ،

(١٨٣) المصدر السابق ص ٥ ؛ Trim.. p. 76

(١٨٤) Trim., p. 76

(١٨٥) المصدر السابق

(١٨٦) Trim., p. 76 ; Budge; p. 311 ; Coulb. II, pp. 19-24

أو أن هناك ملكين حبشيين أرسلا رسائل إلى البابا عام ١٢٩٧و١٣٠٥م مع قلة وجود الدليل القاطع على هذه الاتصالات القديمة فإنه يمكن القول أن النجاشى زرء يعقوب لم يكن الأول فى الاتصال بروما(١٨٧) .

ومن جانب آخر ، عمل زرء يعقوب على موادعة سلطان مصر يومئذ وهو جقمق العلائى الظاهرى (٨٤٢ـ٨٥٧هـ=١٤٣٨ـ١٤٥٣م) حتى لا يضطهد الأقباط فى مصر ، فأرسل له كتابا باللغة العربية ومعه بعض الهدايا من الجوارى والرقيق وطشت وإبريق من ذهب مسقط ... ومما جاء فى هذا الكتاب .

« المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قنسطنطين من نسل سيف أرعد من بنى سليمان بن داود عليهما السلام ، ملك سلاطين الحبشة وصاحب النواب بالمملكة النجاشية .... إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطانى الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام ·

سيد الأنام ... أما بعد .. إنه قد اتصل إلينا جميل أخباركم ، وأنكم ، حفظكم الله تعالى ، أمرتم بإبطال المظالم من سائر العالم وردعتم القوم الظالمين ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم .. ولما بلغ إلينا ما أنتم عليه من الخير استنشقنا منه عرفا طيباً .. وقصدنا تجديد ماسبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم ، اتباعاً لآثارهم المشكورة ... وآخر ذلك ما كان فى أيام الشهيد الظاهر برقوق ونجله الناصر . .كانو قائمين بالعدل خصوصاً إخوتنا النصارى متوصين ويرجعوا عنهم القوم الرائدين هدم كنائسهم والقتل على من كان فيها من الأقسسة والرهابين أو ذلك بما يحققون من مناصحتهم فى خدمتهم ، ومن كان منهم يموت يدفن من غير تعرض أحد ، ومن كان لاوارث له وخلف شيئاً من الموجود يتولى أمره أبونا البطريرك ليستعين به على كلف الواردين والمنقطعين وقد بلغنا الآن هذه القواعد قد تغيرت . . . . وأنتم ، حفظكم الله .. عارفون مايلزم الراعى من النظر فى حال الرعية وأن الله يطالبه بذلك،

(١٨٧) Budge, p. 311

وأبونا البطريك وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ضعيف الحال مساكين فى كل الجهات ، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم مافى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم ولملوكهم مالكون ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين ، ومن تقدم من آبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين ولأنفسهم وأموالهم حافظين ، سامعين لأقوالهم ، رادعين من يتعرض إليهم ونحن على ما كان عليه آباؤنا سالكون فى طريقهم غير متعرضين لإقامة مساجدهم ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مواسمهم . وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب ، راكبون الخيول المسومة وعامتهم فى أسبابهم آمنون .. ولا نأخذ منهم جزية ولا شيئا قليلا ولا كثيراً . وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا . . ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمى الفتن التى هى أشد من القتل . وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا أماكن فوقانيه ينصرف فيها إلى أماكن أخرى قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والشفقة على عباد الله ، وقد عرضنا على مسامعكم ماينبغى إعلامه فاعملوا أنتم بما يلزمكم .. ولم يبق لكم عذر تبدونه . . وليكن حبل المودة ممتداً بغير انصرام ـ وستعلمون صحة كلامنا ، واسألوا الجبرتية الذين هم يقيمون بالجامع الأزهر . كم لهم سلطان من المسلمين ... »

ورغم هذا فإن زرء يعقوب لم يكف عن اضطهاد المسلمين وحربهم وكان السلطان جقمق على علم تام يكذب مافى هذا الكتاب من ادعاءات ، وما عند الأحباش وملكهم من « الزور والبهتان . . . » فضلا عما هناك من تهديدات واضحة ، وذلك بجانب أن « نصارى الديار المصرية قد كثر تعديهم واستطالتهم بالمبالغة فى البناء ولإحداث الكنائس . . . » إزاء هـذه الحقائق رفض السلطان ماجاء برسالة النجاشى وأجاب بكتاب وهدية أرسلهما على يد قاصد سلطانى هو يحي بن أحمد بن شاد بك ،

غير أن زرء يعقوب لم يرتض هذا الجواب وعوق القاصد السلطاني بعض الوقت ، حتى أجهز على سلطان عدل، شهاب الدين أحمد بدلاى ، وأرسل مندوب جقمق ليرى السلطان المقتول حتى يكون ذلك أنكى للمسلمين .

كانت إجابة جقمق على هذه الأحداث استدعاء البطريرك وضربه وتهديده بقتل جميع النصارى لأنهم سبب ذلك ، وأمره بإرسال كتاب بخطه ومن قبله إلى النجاشي ليرد القاصد السلطاني مكرماً ، وعاد يحيي بن أحمد بعد مضى نحو أربع سنوات . . .(١٨٨)

وبوفاة الملك زرء يعقوب عام ١٤٦٨ م ، ينتهي الدور الأول في تاريخ الأسرة السليمانية بالحبشة ، وهو دور الفتح والتوسع ، فقد اقترن عهد خلفائه المباشرين بتغيير جوهرى فى الأحوال الداخلية والأوضاع الخارجية .

أما الجانب الداخلى فهناك اضطرابات بعضها دينى وبعضها سياسى؛ بل إن بواكر هذه الاضطرابات قدبدت أواخر عهد زرء يعقوب حين وفد على الحبشة عدد من الرهبان المصريين والسوريين بعد مجمع فلورنسة الدينى الذى انتهى عام ١٤٤٥م ، وأخذوا ينشرون بعض الهرطقة التى تنكر تجسدالمسيح ، فثار رجال الدين فى الحبشة وعقدوا مجلسا قرر بطلان مادعا إليه أولئك المهرطقون ، وهذا بجانب النزاع على العرش لكثرة أبناء زرء يعقوب ، ووقوع بعض المؤامرات(١٨٩) .

حقيقة استطاع ابنه بئيد مريم(Baed Mariam) ومعناه بيد مريم الذى ولى العرش ١٤٦٨م(١٩٠) أن يحقق نوعا من الهدوء وأن يبسط سيادته على ملوك عدال فترة من الزمن ، إلا أن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما تلاحقت هزائمه على يد المسلمين وأنكاها ماوقع لجيشه عام ١٤٧٨م حين أباده المسلمون ومزقوه شر ممزق ، حتى إن

(١٨٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧–٧٢ ، عابدين ص ١٨٣–١٨٤

(١٨٩) Budge, pp. 319-20

(١٩٠) Kammerer, pp. 360-1

الحطى اعتقد أن نقمة السماء قد حلت به ، فوزع بعض الصدقات ، وتابع ابنه إسكندر (١٤٧٨ـ١٤٩٢م) الملقب بقنسطنطين الثانى ، سياسته وبالغ فى تدمير المساجد والمنازل فى دا كار وهى قاعدة ملوك عدال الإسلامية واستبقى كوفيلهام Covilham رسول جون الثانى ملك البرتغال ليعمل مستشارا له ، غير أن اسكندر لم يعمر طويلا فقدقتل عام ١٤٩٢ وخلفه ابنه الطفل عمدا صيون الثانى[١٩١] ومات هذا الطفل بعد حكم دام نحو ٧ أو ٨ شهور وجاء بعده عمه ناؤود (Naod) أخو اسكندر ١٤٩٤ـ١٥٠٨ ولم يقصر فيما استنه أسلافه من مداومة الضرب على أيدى المسلمين بل استطاع أن يهزم جيش بالى الإسلامية ويرغم قائدها على المسيحية ويوليه بالى من قبله ، إلا أن هذا القائد لم يلبث حتى انتقم لنفسه ولدينه وهرب أمام جيش الحبشة ، فانتقم له محمد ملك عدال وشتت جيوش الحبشة[١٩٢] .

وعهد الحطى الملقب بلبنا دنجل (Lebna Dengel) أى بخور العذراء أو لبان العذراء، عهدبارز فى تاريخ العلاقات الحبشية الإسلامية لأنه هو العهد الذى بدأت فيه الأوضاع السياسية والعسكرية تتبدل فيما حوله وترجح فيه كفة المسلمين على الأحباش ومن والاهم[١٩٣]. ولذا يمكن أن يقال إن هذه الفترة التى تبدأ من عهد لبنا دنجل أو حتى منذ وفاة جده زرء يعقوب كانت فيما يتعلق بالجانب الإسلامى على النقيض من الفترة السابقة فبينما كانت الفترة السابقة فترة ضعف وتدهور تميزت الفترة اللاحقة ببروز قوة المسلمين وانتصارهم ، بل اتسعت رقعة الممالك الإسلامية فى الحبشة بحيث أضحت تضم نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة وفى نفس الوقت ازداد انتشار الإسلام بازدياد قوته السياسية وذلك بينما انحطت قوى الأحباش وتدهورت ولم يكن باستطاعتهم عمل شيء سوى التزام جانب الدفاع . .

ظهر فى أفق هذه الفترة الجديدة التى يؤرخ لها بنهاية القرن الخامس عشر الميلادى وأوائل السادس عشر عامل جديد يتمثل فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة

---

(١٩١) أخفت الملكة رمانه مقتل بئيد مريم نحو ثلاث سنوات حتى لاتضطرب أمور الحبشة

(١٩٢) Budge, pp. 320-8

(١٩٣) Chronique du Regne de Menelik II, p.39

الـكشف الجغرافى ، فتقدم العثمانيون والبرتغاليون ، كل يناصر الفريق الذى التمس العون منه ، كذلك دخلت أسلحة جـديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى نضالهم السابق .

كشف البرتغاليون الطريق إلى الشرق أواخر القرن الخامس عشر الميـلادى وضرب فاسكودى أجاما ميناء مقدشو الإسلامى بالمدافع عام ١٤٩٩م كما أسس البرتغاليون عام ١٥٠٧م نقطة ارتـكاز لهم فى جزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الأحمر . أدت هذه إلى اتحاد قوى الإسلام المحيطة بالبحر العربى لصد الخطر البرتغالى واشترك قانصوه الغورى سلطان المماليك فى مصر بإرسال حملة بحرية فشلت مع أحلافها عام ١٥٠٩ أمام البرتغاليين عند جزيرة ديو على الساحل الغربى للهند. استمر البرتغاليون فى التوسع وتدعيم مراكزهم الشرقية الجديدة وإتلاف بعض الموانى الإسلامية المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن من ذلك مافعله القائد البرتغالى لوب سوارز(Lope Suarez) حين أحرق ميناء زيلع عام ١٥١٧م ، كما أن قائدا برتغاليا آخر هو سلادانها (Saladanha) نهب ميناء بربرة[١٩٤] .

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون يواجهون قوة إسلامية كبرى ، هى قوة العثمانيين . ومنذ فجر القرن السادس عشر الميلادى أخذ العثمانيون يبسطون سيادتهم على بلاد الشرق الأدنى ، واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون وأسسوا فى كل منهما ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم ، وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الإفريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء ، فى أثيوبيا ، فقد عرفت القوتان المتناحرتان أن الغزاة الجدد يتسلحون بأسلحة نارية ومدافع لن تستطيع إحداها مقاومتهم ، غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد ، وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الأهداف التجارية ، ولدى المسلمين

(١٩٤) Trim., p. 77

بالحبشة معلومات وافية عنها(١٩٥) أما الحبشة فكان الأمر مختلفا بالنسبة إليها فهي مسيحية متعصبة لمسيحيتها وليس هناك أدنى احتمال لإمكان استمداء الأتراك على المسلمين الأعداء ، إذن لابدمن محاربة مسلمى الحبشة وأحلافهم الجدد ، لكن أسلحة الأحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هى القوس والنشاب والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك ، وهذه لاتجدى فتيلا أمام الأسلحة الحديثة آنئذ ؛ إذن لابد من عون خارجى يتفق فى التسلح والنظام مع العدو الأقوى كما يتفق مع الأحباش فى العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلانه أو إلينى (Eleni) العجوز الوصية على لبنادنجل (١٥٠٨ـ١٥٤٠)(١٩٦) أن المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الأوروبية استعانة جدية فعالة ، فحين سمعت بانتصارات البرتغال فى المحيط الهندى ، طلبت مساعدتهم ، ومن ثم توالت البعثات الحبشية إلى أوروبا : منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا فى روما(١٦٧) .

على هذا النحو أضحى النضال الإسلامى الحبشى داخل إفريقية صدى للنضال العثمانى البرتغالى أو النضال العثمانى الأوروبى فى حوض البحر الأحمر ثم البحر الأبيض بعد ذلك ، أو قل إن نضال الممالك الإسلامية بالحبشة ضد الحبشة صورة من صور النضال المزمن بين الشرق والغرب ، وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداه داخل شبه الجزيرة العربية .

إبراهيم على طرخان

---

(١٩٥) Budge, p. 330 ; Trim., p. 78 Coulb. II, pp. 97-123

(١٩٦) عابدين ص ١٨٨ . Trim., pp. 82 Budge, pp. 319, 322,326
Kammerer, pp. 363-4

(١٩٧) Bugde, pp. 330-332, Coulb. II. pp. 56-88
Trim., pp.77-78 ؛ الشاطر بوصيلى ص ١٣ـ١٥ .